السيرة النبوية

حُقوق الطَّبع محفُوظَة

لوزارة الأوقاف والشؤون الدينيَّة
سلطنة عُمان

الطبعة الرابعة
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

لا يجوز نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال أو بأية وسيلة من الوسائل - سواء التصويرية أو الالكترونية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي أو سواه وحفظ المعلومات واسترجاعها - إلا بإذن خطي من الناشر.

السيرة النبوية

إعداد:

الدكتور سليم بن سالم آل ثاني

كلية الشريعة والقانون

عاشور بن يوسف كسكاس

معهد العلوم الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

السيرة النبوية الشريفة عَبَقٌ يَستنشقه كل مسلم وغذاء روحي ينهل منه كل مؤمن ومرآة يرى المرء فيها نفسه ليقيِّمها وهي نموذج أمثل لشخصية اختارها الله تعالى رحمة للعالمين وقد قال فيه ﷻ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] فلا عجب، فإن سيرة رسول الله ﷺ النموذج التطبيقي الأمثل لما جاء في كتاب الله العزيز من تشريعات في مختلف مجالات الحياة، وبطلب من وزارة الأوقاف والشؤون الدينية حاولت أن أعرض السيرة العطِرة بأسلوب مبسَّط يفهمه كل قارئ لعله يجد فيها البلسم لكل داء والنجاة من كل ابتلاء والسبيل إلى كل فوز ونجاح وصَدَق الله القائل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وإني إذ أُثَمِّن جهود وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في سبيل نشر الوعي بين الناس سعياً إلى توسيع آفاقهم الفكرية وإسهاماً منها لتنوير العقول أرجو أن يكون لهذا العمل الأثر الإيجابي في نفوس القرَّاء الكرام ينير لهم الطريق ويهديهم إلى سواء السبيل.

وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وعلى آاله وصحبه أجمعين.

عاشور بن يوسف كسكاس

سيرة الرسول ﷺ:

لا ريب أن سيرة سيدنا محمَّد ﷺ تشكِّل الركيزة الأساسية لحركة التاريخ الذي عاشته البشرية طوال أربعة عشر قرناً ولا تزال تعيشه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. لقد أحدثت بعثة الرسول الأعظم تحوُّلاً في مجرى التاريخ، ومسار حياة البشرية على هذه البسيطة، كانت الحياة تسير في اتجاه خاطئ ومسار معوج، الناس فيها على ضلال ورهق، لا حياة إلا للقوي على الضعيف ولا أثر إلا لمن يسود بقوة التسلُّط، وبسط النفوس حتى جاءت البعثة المباركة وتحوَّل الاتجاه إلى المسار الصحيح وأضحى الإنسان يشعر بكرامته التي تقوم على المبادئ والتغيّر والأخلاق متحرِّراً من القِيَم المادية والروابط الأرضية متطلِّعاً بعقله وروحه إلى رب السماوات والأرض وقيّومهما يسمو بإيمانه، ويسود في الأرض بعدله ومبادئه، كل هذا يعود إلى فضل الله تعالى على هذه البشرية ببعثة خير البرية ومُرشد البشرية.

سيرة الرسول ﷺ هي نشأته عليه السلام وأخلاقه، وحياته الشخصية والبيتيّة وصبره وكفاحه، وسِلمه وحربه. صِلاته بأصدقائه وصحابته وتعامله مع خصومه وأعدائه. مواقفه من الدنيا وأهوالها وزُخرفها، من الحياة وتقلّباتها، من علاقة المرء بنفسه والكون

وخالق الكون كل هذا ما دوّنه القرآن الذي نزل على قلب محمَّد واحتوته السيرة العطرة التي سجَّلها الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام في واقع الحياة قولاً وعملاً وسلوكاً.

هذه هي سيرته عليه السلام لتكون لنا القدوة والأسوة والمنهج في هذه الحياة والدرب الصحيح للوصول إلى ما بعد الموت بسلام والفوز بالجنان. وصدق الله القائل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

عاش رسول الله ﷺ ثلاثة وستين عاماً، وبدأ دعوته عند بلوغه سن الأربعين، أي أنه ظل يكافح ويجاهد ثلاثاً وعشرين سنة في تدعيم ركائز التوحيد والقضاء على الوثنية ونشر تعاليم الإسلام والحضارة القائمة على أُسس من الأخلاق والفضيلة وحرية الإنسان وكرامته، فكانت ساعات عمره شهوراً، وشهوره أعواماً، وأعوامه أجيالاً. كان يُعلِّم الناس أمور دينهم، يزيل عنهم لوثات الوثنية والإلحاد ويغرس فيهم حب الله والولاء لدينه ولكتابه الكريم، كان يفرغهم من أدران الجاهلية ومآثرها الباطلة ويملأهم إيماناً بالله وحباً لرسوله وكتابه وإقبالاً على دينه، يحملونه في عقولهم وقلوبهم ويطبّقونه في حياتهم، ويؤدبهم ويهذّبهم بالأفعال بالحسنة والأقوال الصادقة والصفات العالية.

محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام خاتم الأنبياء والمرسلين بلا ريب فلا نبي بعده، ختم الله به الرسالات السماوية وأتم ببعثته صِلة السماء بالأرض، وأكمل به البيان الإلٰهي الشامخ فكان اللّبنة

التي سـدّت الثغرة وأكملت النقص، قال ﷺ: **(مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين)** «حديث متفق عليه واللفظ لمسلم».

لا توجد أديان سماوية متعددة، إنما توجد شرائع سماوية متعددة نسخ اللاحق منها السابق إلى أن استقرت الشريعة السماوية الأخيرة التي قضت حكمة الله أن يكون مبلغها هو خاتم الأنبياء كلهم للدعوة إليه وأمر الناس بالدينونة له منذ آدم عليه السلام إلى محمَّد ﷺ وهو الإسلام قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

فالأنبياء كلهم بُعثوا بالإسلام الذي هو الدِّين عند الله، وأهل الكتاب يعلمون وحدة الدِّين، ويعلمون أن الأنبياء إنما جاؤوا ليصدّق كل واحد منهم الآخر فيما بُعث به من الدِّين.

بالإسلام بُعث إبراهيم وإسماعيل ويعقوب. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ ـ ١٣٢].

وبه بُعث موسى إلى بني إسرائيل، وبه بُعث عيسى عليه السلام،

ولكن أهل الكتاب حرّفوا وبدَّلوا وتفرّد كل قوم منهم بعقيدة خاصة به مما جعلهم يعيشون في شكّ مريب قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [الشورى: ١٤].

إن نشأة التاريخ العربي إنما تمّت في كَنف الحنيفية السمحة التي بُعث بها أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام، فكانت تغمر حياتهم عقيدة التوحيد ونور الهداية والإيمان. ثم أخذ العرب يبتعدون عن ذلك الحق رويداً رويداً بعامل امتداد الزمن وتطاول القرون وبُعد العهد، وأخذت حياتهم تغمرها ظلمات الشرك وضلالات الكفر وعماهة الجهل، مع استمرار بقايا من معالم الحق القديم ومبادئه بنورها الباهت تذوي وتضعف مع مرور الزمان ويقل أنصارها ما بين سَنَة وأخرى حتى عَمَّت الوثنية أرجاء الجزيرة العربية وآن الأوان لبعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ليزيل الظلمات وينشر النور.

نسبه الشريف:

هو محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. ينتهي نسبه ﷺ إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهو نسب شريف من صميم قريش التي نالت المكانة العليا بين قبائل العرب.

وقد طهّر الله نسبه من سفاح الجاهلية، بل اختاره الله تعالى واصطفاه وجعله أزكى الناس نسباً وأنقاهم معدناً وأعلاهم قدراً.

يلتقي نسبه من أمّه مع أبيه في كلاب بن مرّة، فهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن كلاب بن مرة، وأبوه عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة. وقد قال عليه السلام: **(إن الله اصْطفى كنانة من ولدِ إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم)** «رواه مسلم في الفضائل».

كان مقام رسول الله ﷺ أبعد من أن يُنال، وأعلى من أن يُدرك، وأخلاقه وشمائله أعظم من أن تُوصف، وأَجَلّ وأكثر من أن يُحاط بها.

فهو ﷺ منبع الأخلاق، ومبعث الفضائل والشمائل، ومحاسن الأفعال، ومكارم الشِّيم. فلا حد لوصفه يوقف عنده، ولا قدرة لأحد من المخلوقين على أن يبلغ بعض ما حازه النبي ﷺ من الكمالات البشرية ويتعرّف عليها بعد قول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

مدح الله ﷻ نبيه بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فهو عليه الصَّلاة والسَّلام رحمة مُهداة للبشرية جميعهم أمَّا أصحابه وأتباعه فقد نالوا من هذه الرحمة ما رفع قدرهم بعد ضعف وأعزَّهم بعد ذلّة وجمع شملهم بعد فرقة فنالوا بذلك خَيْرَي الدنيا والآخرة، وأما سائر الأمم الثانية التي لم تُؤمن برسالته فقد

نالها من بعثته عليه السلام النفع والخير العميم. فإن الله سبحانه وتعالى رفع بهذه الرسالة العذاب العام عن أهل الأرض، كالنَّسف والخسف والإساءَة، فأصاب كل العالمين النفع برسالته صلوات الله عليه وسلامه.

قد خصّه الله بالآيات ذاخرة
فليس للأنبياء فيهن من مثل
آيات مدحك في التنزيل ما برحت
يشدو بها الكون تبجيلاً بلا ملل
فمن يقوم بما قام الإلٰه به
من الثناء على المختار في الأزل
فليس بعد ثناء الله مفخرة
مهما سما مادح أو فاق في غزل
لكن كفى مادحاً من مدحه شرفاً
بأنه نال أقصى غاية الأمل
فنظمه في مديح المصطفى علم
بين القريض به ينجو من الوجل

مولده ﷺ :

وُلد ﷺ في أشرف بيت من بيوت العرب وأزكاها نسباً وأعلاها مكانة. كان عبد الله أصغر أبناء عبد المطلب وأحبّهم إلى أبيه.

زوّجه أبوه بفتاة من خيرة فتيات قريش هي آمنة بنت وهب

ولما دخل عبد الله على زوجته الكريمة حملت منه، وبعد مدة قصيرة سافر عبد الله إلى الشام في تجارة مع نفر من قومه طلباً للرزق، فمرض في طريقه نحو العودة إلى مكّة وتوفي بالمدينة، ودُفن عند أخواله بني عدي ابن النجار ورجعت القافلة تحمل نبأ وفاته.

لما تمّت مدة الحمل وضعت آمنة ولدها الذي جاء نوراً للعالمين وهدًى للناس أجمعين. كان ذلك صبيحة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل بدار أبي طالب بشُعب بني هاشم، فاستقبل جدُّه عبد المطلب النبأ بفرح كبير وقد رأى فيه عوَضاً لابنه الذي فقده منذ أشهر قليلة وسمَّاه محمَّداً تيمناً به وتفاؤلاً أن يكون محموداً في الأرض وفي السماء. وتولّت أمّه إرضاعه فترة من الزمن إلى أن جاءت حليمة السعدية لتأخذه إلى مرابع بني سعد.

ما قيل في مولده ﷺ:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: وُلد رسول الله ﷺ مسروراً؛ أي: مقطوع السرّة، وجاء: أن إبراهيم عليه السلام حين وُلد نزل جبريل عليه السلام وقطع سرّته، وأذّن في أذنه وكساه ثوباً أبيضاً، وولد نبينا ﷺ مختوناً؛ أي: على صورة المختون؛ أي: مكحولاً ونظيفاً ما به قَذَر ولا بَلَل، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مِن كرامتي على ربي أني وُلدت مختوناً ولم يَر أحد سوأتي) وقد جاءت أحاديث كثيرة في ذلك.

لما وُلد رسول الله ﷺ وقع على الأرض مقبوضة أصابع يده رافعاً أصبعيه كالمتضرِّع المبتهِل، وفي سجوده إشارة إلى أن مبدأ أمره على القرب من الحضرة الإلٰهية. وروى ابن سعد أنه ﷺ لما وُلِد وقع على يديه رافعاً رأسه إلى السماء، وفي رواية: وقع على يديه رافعاً رأسه إلى السماء وفي رواية: وقع على كفّيه شاخصاً ببصره إلى السماء. وفي رواية: وقع جاثياً على ركبتيه. وفي رواية عن أمّه عليها السلام: «لما خرج من بطني نظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه كالمتضرِّع المبتهِل». وإلى رفع رأسه وشخوص بصره إلى السماء يشير صاحب الهمزية بقوله:

رافعاً رأسه وفي ذلك الرفـ ـع إلى كل سؤدد إيماء
رامقاً طرفه السماء ومرمى عين من شأنه العلو العلاء

تسميته ﷺ محمَّداً أو أحمداً:

لا يخفى أن جميع أسمائه ﷺ مشتقّة من صفات قامت به تُوجب له المدح والكمال، فله من كل وصف اسم. من أسمائه الباقر، مِن بَقَر العلم: أتقنه. وعن علي قال: أُمِرَت آمنة ـ أي في المنام ـ وهي حامل برسول الله ﷺ أن تسمّيه أحمد، وعن إسحاق: أن تسميه محمَّد، وقيل: المسمّي له بمحمَّد جدّه عبد المطلب. عن ابن عباس رضي الله عنهما: لما وُلد رسول الله ﷺ، عقّ عنه ـ أي يوم سابع ولادته ـ جدّه بكبش وسمَّاه محمَّداً، فلما سُئل: ما حملك

على أن تسـمّيه محمَّداً ولم تسـمّه باسـم آبائه؟ قال: أردت أن يحمده الله في السماء وتحمده الناس في الأرض.

المشهور أن عبد المطلب، سـمى حفيده محمَّداً ـ بإلهام من الله تعالى، تفاؤلاً بأن يكثر حمد الخلق له لكثرة خصاله الحميدة التي يُحمد عليها، ولذلك كان أبلغ من محمود وإلى ذلك يشـير حسّان، عنه قال:

فشـق لـه مـن اسـمـه ليجلّـه
فـذو العـرش محمـود وهـذا محمَّد

وهذا الإلهام لا ينافي أن تكون أمّـه قالت له، إنها أُمرت أن تسـمّيه بذلك وقد حقَّق الله رجاءه بأنه ﷺ تكاملت فيه الخصال المحمودة والخِلال المحبوبة فتكاملت له ﷺ المحبّة من الخالق والخليقة فظهر اسـمه على الحقيقة. وكانت تسـميته ﷺ في يوم العقيقة في اليوم السابع من ولادته.

إن في هذين الاسـمين محمَّـد وأحمد من بديـع آياته: أي المصطفى وعجائب خصائصه، أن الله تعالى حماها عن أن يُسمَّى بهما أحد قبل زمانه، أي قبل شـيوع وجوده. أما أحمد الذي أتى في الكتب القديمة، وبشّـرت به الأنبيـاء عليهم السلام، فمنع الله تعالى بحكمته أن يتسـمّى به أحد غيره، ولا يدعى بـه مدعو قبله منذ خلقت الدنيا وفي حياته، ولا في زمـن أصحابه رضي الله تعالى

عنهم، فالتسمية به من خصائصه صلوات الله عليه وسلامه على جميع الناس ممن تقدّمه، ومن ثم ذهب بعضهم إلى أفضليته على محمَّد، وقيل: إن أحمد أبلغ من محمَّد ولعلّه لكونه منقولاً عن أفعل التفضيل.

لو كان عليه السلام اسمه أحمد باعتبار حمده لربّه لكان الأولى أن يسمّى الحمّاد كما سميت بذلك أمّته، وأما هذا فهو الذي يحمده أهل السماء والأرض وأهل الدنيا والآخرة لكثرة خصاله المحمودة التي تزيد على عدّ العادّين وإحصاء المحصين: أي أحق الناس وأولاهم بأن يحمد، فهو كمحمَّد في المعنى، فهو مأخوذ من الفعل الواقع على المفعول لا الواقع من الفاعل. والفرق بين محمَّد وأحمد، أن محمَّداً من كثُر حمد الناس له، وأحمد من يكون حمد الناس له أفضل من حمد غيره. وهو أحمد المحمودين، وأحمد الحامدين. ثم أنه عليه السلام لم يكن محمَّداً حتى كان قبل أحمد. فبأحمد ذُكر قبل أن يُذكر بمحمَّد، لأن حمده لربّه كان قبل حمد الناس له صلوات الله عليه وسلامه.

أسماؤه ﷺ الأخرى:

قال رسول الله ﷺ: (**إن لي أسماء: أنا محمَّد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر. وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدميّ، وأنا العاقب، «والعاقب الذي ليس بعده نبيّ»**). وقال: (**أنا محمَّد، وأنا أحمد، وأنا نبي الرحمة، ونبي التوبة، وأنا**

المقفّي، وأنا الحاشـــر، وأنا نبي الملاحم). وقد سمّاه الله ﷻ نبيًّا وشاهداً ومبشّرًا ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ورؤوفاً ورحيماً، وجعله رحمة ونعمة وهادياً. ومن أسمائه: الفاتح، وطَه، ويَس: وعبدالله، وخاتـــم الأنبياء والمختار. وكنيته: أبو القاســـم، وكنَّاه جبريل عليه السلام «أبا إبراهيم» ﷺ.

رضاعته عليه الصَّلاة والسَّلام ومرضعاته:

كان من عادة العـــرب أن يلتمســـوا المراضـــع لأبنائهم من البوادي حيث الهواء النقي والنجابة والشجاعة. فكان الفتى اليتيم من نصيب حليمة السعدية. حملت حليمة رضيعها فدَرّ لبنها بعد جفاف وأخصب العيش ولان بعد شظف وخشونة وتيسرت الحال بعد الفقر والحاجة، فرأت حليمة أن البَرَكة حلّت بيتها.

أمضى محمَّد ﷺ السنوات الأربع الأُولى من طفولته في بادية بني سعد، فنشـــأ قوي البنية، سليم الجســـم، فصيح اللسان، وقد تفتّقت مواهبه على صفاء الصحراء ونقاء هوائها وفسيح أرجائها.

يقول صاحب الهمزية في رضاعه ﷺ:

وبـــدت فـــي رضـــاعـــه مـعـجـزات
لـيـس فـيـهـا عـــن الـعـيـون خفاء
إذ أتـــتـــه لـيـتـمـه مـرضـعـات
قـلـن مـا فـي الـيـتـيـم عـنـا غناء

فـأتـتـه مـن آل سـعـد فـتـاة
قـد أبـتـهـا لـفـقـرهـا الـرضـعـاء
أرضـعـتـه لـبـانـهـا فـسـقـتـهـا
وبـنـيـهـا ألـبـانـهـن الـشـاء
أصبحـت سـوّلاً عجافـاً وأمسـت
مـا بـهـا شـائـل ولا عـجـفـاء
أخصـب العيـش عندهـا بعـد محل
إذ غـدا لـلـنـبـي مـنـهـا غـذاء
يـا لها منّـة لقد ضـوعـف الأجـر
عـلـيـهـا مـن جـنـسـهـا والـجـزاء
وإذا سـخَّـر الإلٰـه أنـاسـاً
لـسـعـيـد فـإنـهـم سـعـداء

عن ابن عبّـاس رضي الله عنهما أن حليمة كانت تتحـدّث أنه ﷺ لما ترعرع كان يخرج فينظر إلـى الصبيان يلعبون فيجتنبهم، فقال لي يوماً: **(يا أمّاه، ما لـي لا أرى إخوتي بالنهار)**، يعني إخوته مـن الرضاعة: أخـوه عبد الله وأختاه أنيسـة والشـيماء أولاد الحارث، قلت: فدتك نفسـي، إنهم يرعون غنماً لنا فيروحون من ليل إلى ليل، قـال: **(ابعثيني معهم)**. فـكان عليه الصَّلاة والسَّـلام يخرج مسـروراً ويعود مسـروراً وكان عليه الصَّلاة والسَّـلام شـديد التعلّق بهم تبدو عليه ملامح النجابة وكَرم

الأخلاق وأَصالةُ المعدن. وكانت أخته الشيماء تحضنه مع أمها وتداعبه بقولها:

هذا أخ لـــي لم تلده أمي وليس من نسل أبي وعمّي
فأنمـــه اللهم فيمـــا تنمي

وَفَدت حليمة على رســـول الله ﷺ بعد تزوّجه خديجة تشكو إليه ضيق العيش فكلّم لها خديجة فأعطتها عشرين رأساً من غنم وبكرات. «البكرة: الثنية من الإبل»، وفي رواية أربعين شاة وبعيراً.

ووفدت عليه يوم حنين فبســـط لها رداءه فجلست عليه. قال بعضهم: لم تره بعـــد أن ردَّته إلى أمه إلا مرتيـــن: إحداهما بعد تزوّجه بخديجة. قدمت عليه مع زوجها وولدها وأجلســـهم على ردائه الذي كان جالســـاً عليه، والمرَّة الثانية يوم حنين، ثم جاءت أبا بكر رضي الله عنه ففعل ذلك، ثم جاءت عمر ففعل كذلك. وإن من أكبر سعادة حَليمة توفيقها للإسلام هي وزوجها وبنوها.

أرضعته ﷺ من النساء ثمان، وقيل أكثر، أولاهن أمّه آمنة ثم ثويبة الأســـلمية جارية عمّه أبـــي لهب التي أعتقها حين بشّـــرته بولادته أياماً قبل قـــدوم حليمة، وخولة بنت المنـــذر وأم أيمن، وامرأة سعدية غير حليمة، وثلاث نسوة من العواتك «أي: اللواتي يحملن اسم عاتكة».

وأكثرهن إرضاعاً له حليمة بنت أبي ذؤيب الســـعدية وتكنَّى

أم كبشـــة. وكان من عادة العرب إذ وُلد لهم مولود أن يلتمسوا له مرضعة من غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له.

وفاة أمه وكفالة عمّه له صلوات الله عليه وسلامه:

توفيت أمّه آمنة بعد زيارة لأخواله لأبيه تَعرّف فيها عليه السلام على أقوام تصلهم به أواصر الرَّحم وكأن الأقدار تهيِّء له المكان الذي سيأوي إليه بعد سنين من عمره.

فحضنته أم أيمن بركة الحبشية خادِمة آمنة فكان عليه السلام يقول لأم أيمـــن: (أنتِ أمي بعد أمّـــي). ويقول: (أم أيمـــن أمّي بعد أمّي).

ثم كفلـــه جدّه عبدالمطلـــب وحنا عليه بعطفـــه ورعايته. ثم توفي الجـــد والحفيد لم يتجـــاوز الثامنة من عمـــره فكفله عمّه أبو طالـــب رغم كثـــرة عياله. كان شـــديد الحنو عليـــه، يرى فيه علامات تشـــير بعِظَم شـــأنه، فكان يقرّبه إليه ويفضّله على سائر أبنائه ويختصه بعطفه واحترامه حتى نشأ وكبر واشتد عوده.

وموت أُمه صلى الله عليه وآله وسلم كان في حياة عبدالمطلب هو المشهور الذي لا يكاد يعرف غيره.

طفولته عليه السلام وبعض إرهاصاتها:

رعى محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم الغنم مع إخوته مـــن الرضاعة في بادية بني سعد، كما رعاها لأهل مكَّة لما رجع إليها على قراريط مكَّة. فما

من نبي إلا رعى الغنم فسكن في قلبه اللطف والرحمة والرعاية للخلق.

كان عمّه أبو طالب قليل المال فلما كفله بارك الله له في قليله رغم كثرة عياله، وقد صحب عمّه أبا طالب في رحلته إلى الشام فسخَّر الله له غمامة تظلّه في اليوم الصَّائف لا يشترك معه أحد في القافلة وسجد له الشجر والحجر، وقد شهد بذلك الراهب بحيرا.

عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طشت وفي رواية (طست) من ذهب بماء زمزم، ثم لأمَه وأعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، أي مرضعته، وهي حليمة السعدية فقالوا: إن محمَّداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون؛ قال أنس: فكنت أرى أثر المخيط في صدره. أخرجه البخاري في بدء الخلق.

شبابه وبعض إرهاصاته:

قال عليه الصَّلاة والسَّلام: **(لما نشأت بُغضَت إليّ الأصنام، ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلّا مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدها حتى أكرمني الله برسالتي...)**.

لقد نفر ﷺ من المعبودات الباطلة، فكان لا يُطيق

سماع الحلف باللات والعزّى، ولم يحضر لقريش عيداً وثنياً ولا احتفالاً ولا أكل مما ذُبح على النّصب ولا شرب خمراً.

أراد ﷺ ليلة أن يسمر فقال لفتى كان يرعى معه الأغنام: **(لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكَّة وأسمر بها، فخرج وسمع عزفاً في عرس فضرب الله على أذنه وهو في الطريق فنام وما أيقظه إلا حرُّ الشمس)**.

مارس التجارة فحلّت البركات واشتهر بأمانته وعفّته.

تاجَرَ بأموال خديجة قبل الزواج بها وبعده فحقَّق الربح الوفير، لكنّه كان على سيرة إخوانه الأنبياء السابقين زاهداً في الدنيا متجرّداً عن جواذبها. عاش متواضعاً راضياً بالكفاف، كان أفضل قومه مروءة، وأكرمهم عِشرة وأصدقهم حديثاً، وقد جمع الله فيه خصالاً حميدة لم تجتمع في غيره من الخَلق.

الرحلة الأُولى إلى الشام:

تعلّق الفتى بعمّه وهو يستعد للخروج إلى الشام متاجراً فرقّ له وأخذه معه وقد بلغ آنذاك اثنتي عشرة سنة. وفي الطريق توقفت القافلة بقرية بُصرى، وكان بها راهب يُدعى بحيرا. فلما نزل الركب خرج إليهم ولم يكن يخرج إليهم قبل ذلك. فدعاهم إلى طعام وأقبلوا إليه، ولما افتقد الراهب الغلام ولم يجده طلبه وألحّ في طلبه، فأرسلوا إليه، فلما أقبل عليهم أظلته غمامة ولما

جلس مع قومه مـــال ظِل الشـــجرة عليه، عندئذ ناشـــد الراهب أبا طالب أن يرجع بالفتى إلى مكَّة وأعلمه بأنه ســـيكون له شأن وحذّره أن اليهود لو رأوه لقتلوه. وما زال به حتى أعاده أبو طالب إلى مكَّة.

الرحلة الثانية إلى الشام في تجارة خديجة:

لمّا بلغ النبي سن الخامسة والعشـــرين سافر إلى الشام ثانية في تجارة لخديجة بنت خويلد الأســـدية، وقد كانت سيدة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها مضاربة، وقد علمت بأمانة محمَّد بن عبد الله وصدقه، فاســـتأجرته ليخرج بمالها إلى الشـــام صحبه غلامها ميســـرة، ووعدته أن تعطيـــه أفضل ما كانت تعطي غيـــره. فخرج عليه الصَّلاة والسَّـــلام إلى الشـــام، ووفّق في تلك الرحلة إذ باع وابتاع، وحقَّق ربحاً وافراً. وقد لاحظ ميسرة بركاته على صاحبه فأحبّـــه فنقل ذلك إلى خديجة وأثنـــى عليه. فأحبته خديجة وأبدت إعجابها به لصديقتها نفيســـة بنت منية، وأعلمتها بأنها وجدت فيه ضالتها. ورغبت في الزواج به، فلما علم محمَّد عليه الصَّلاة والسَّـــلام بذلك قبل هذا العرض الكريم ورضي بها زوجة كريمة.

وضع الحجر الأَسود:

لما جرفت الســـيول بناء البيت، ســـارع أهل مكَّة إلى إعادة

بنائه من خالص أموالهم، فاشـتركت القبائل القرشـية في جمع الحجارة وعندما بلغوا موضع الحجر الأسود، اختلفوا واختصموا حتى سـلّوا السـيوف للاقتتال للفوز بوضع الحجـر في مكانه. فأشـار عليهم شيخ مسـن منهم أن يحتكموا إلى أول داخل إلى المسجد الحرام، فكان الشاب الأمين فهتفوا جميعاً: هذا الصادق الأمين، رضينا به حَكَماً. فأشـار عليه السلام أن يحضروا له ثوباً، فوضع عليه الحجـر وأمرهم برفعه على أن تأخـذ كل قبيلة بناحية منه، ليحصل لها شـرف المشـاركة، ثم أخذه عليه السلام بيديـه الكريمتين ووضعه في مكانه. وبهذا جنّب قوماً حرباً لا يعلم نهايتها إلا الله.

زواج النبيّ ﷺ من خديجة:

رجع النبي ﷺ من رحلة الشام الثانية موفّقاً في تجارته، وقد بلغه أن خديجة أثنت عليه وأبـدت رغبتها في الزواج منه، فكلّم أعمامه ليخطبوها له.

فذهبوا إلى عمّ خديجة عمرو بن أسد، وتقدّم أبو طالب وألقى خطبته فأثنى فيها على الله وذكر شرف عائلة النبيّ وفضله وإن كان فقيراً فإن له نبأ عظيماً وطلب يد خديجة لابن أخيه وتعهد بصداقها.

وقد حضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر وتم الأمر.

كانت خديجة امرأة حازمة شـريفة فاضلة لبيبة، وهي أفضل نسـاء قومها نسـباً وأكثرهن مالاً وأرجحهن عقلاً. كانت متزوجة بأبي هالة، وقد توفي عنها وترك لها ولداً اسمه هالة. كان عمرها

لما تقدّم لها رسول الله ﷺ أربعين سنة. وهي أول امرأة تزوجها الرسول عليه السلام، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت، رزق منها كل أولاده، سوى إبراهيم، ولدت له القاسم وبه تكنّى، وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وعبد الله ويُلقب بالطيب والطاهر.

وقد مات أبناؤه الذكور كلهم. أما بناته فكلهن أدركن الإسلام وهاجرن وفارقن الحياة في حياته عليه السلام، إلا فاطمة توفيت بعده بستة أشهر.

حالة الناس قبل بعثته ﷺ:

كان الناس قبل البعثة في حالة نفسيَّة يسيطر عليها الخوف وعدم الاستقرار النفسي من عدة جوانب:

- الخوف من الفاقة والجوع في طبيعة قاسية شحيحة الإنبات والزرع بسبب شحّة الأمطار والمياه.
- الخوف من أن تغير عليهم قبيلة أخرى في ظلمة الليل أو في وضح النهار فتسرق أنعامهم وتسبي نساءهم، وتنهب ثرواتهم ومؤنهم.
- الخوف من مستقبل مرتبط بأوضاع متقلّبة سياسيًّا واجتماعيًّا وقد امتن الله تعالى على عباده وعلى أهل مكّة بأن أنقذهم من هذا الخوف فأبدلهم بفقرهم غنًى وبخوفهم أمناً فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٦].

كان محمَّد بن عبد الله شخصاً ليس كبقية الأشخاص، حَبَاه الله تعالى عقلاً راجحاً ونظراً فاحصاً عميقاً، لذلك فقد كان ينظر إلى العادات والأعراف السائدة في البيئة التي نشأ فيها نظر تفكّر وتأمّل، فيرمي سيئها ويتجنّب قبيحها فلم يسجد لصنم، ولم يشترك في جلسة خمر أو استقسام بأزلام، ويقبل على أحسنها، من ذلك مشاركته في حلف الفضول لنصرة المظلوم، حتى قال عليه السلام: **(ما أحبُّ أنَّ لي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حُمر النعم)** كما شارك في حرب الفجار وهو صغير يناول المقاتلين النبل. وأسهم بشكل كبير ومؤثِّر في بناء الكعبة المشرّفة، بل وجنّب قومه حرباً كادت تشتعل شرارتها ولا يطفأ لهيبها.

أنكر محمَّد بن عبد الله عبادة الأصنام منذ أن عقل وأدرك. كان يكره الأصنام منذ نعومة أظفاره، وقد سأله بحيرا الراهب وعمره آنذاك تسع سنوات: يا غلام أسألك بحق اللّات والعزّى إلا أخبرتني عما أسألك عنه. فقال: «لا تسألني باللّات والعزّى، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضها».

كان ينظر إليها بازدراء، ويستخف من وجودها، وفي نظراته ما يشير إلى أنه يتطلع إلى يوم يتطهر فيه المسجد الحرام من رجسها ويصبح فيه الأمر كلّه لله عزّ وجلّ توحيداً وعبادة، خضوعاً واستجابة. وقد عبّر عبد الله بن رواحة عن هذا التطلُّع الذي أضحى واقعاً:

أتـــانـــا رســـــول الله يـــتـــلـــو كتابه
إذا انشـــق معـــروفٌ من الفجر ســـاطع
أرانـــا الهـــدَى بعـــد العمَـــى فقلوبنـــا
بـــه مـــوقـــنـــات أن مـــا قـــال واقـــع
يبيـــت يجافـــي جنبـــه عـــن فراشـــه
إذا ما استثقلت بالكافرين المضاجع

أنكـــر عليه السلام التعصّب للنســـب والقبيلة والتفاخـــر بهما، وأحلَّ محله التفاخر بفضائل الأخلاق وصالح الأعمال وجميل الخِصال. عن أبي هريرة عن النبـــيّ ﷺ قال: **(إن الله يقول يـــوم القيامة إني جعلت نسباً، وجعلتم نسباً، فجعلت أكرمكم أتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا فلان ابن فلان، وأنا اليوم أرفع نســـبي وأضع أنسابكم، أين المتقون.... أين المتقون..)** ومحمَّد بن عبد الله جبل أشم، لم تجرفه التيـــارات الجاهلية ولم تَنَل منه بل اســـتطاع بتأييد من الله عزوجل أن يكسر شوكتها ويُبطل سطوتها ويحول الناس إلى الحق والعدل.

كان عُمر رســـول الله ﷺ لما تزوج خديجة خمســـاً وعشرين ســـنة، فبقيت عنده قبل البعثة خمسة عشر ســـنة كانت فيها مثالاً للزوجة البـــارَّة. أمـــا حياتها معه بعـــد بعثته عليه السلام فكانـــت مليئة بالمواقف المشـــرّفة. هـــي أول من آمن به فـــي الأرض وصدّقته وآزرته وثبتت معه في المِحنة وأعانته على التبليغ. قال فيها عليه السلام: **(آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدّقتنـــي حين كذّبني الناس،**

وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، وآوتني إذ رفضني الناس، ورُزقت منها الولد).

إرهاصات قبل البعثة:

شاءت حكمة المولى ﷻ أن يهيئ النفوس لاستقبال الحدث العظيم بأمور عدّة منها:

١ ـ التدهور الذي أصاب المجتمعات البشرية في الجزيرة العربية خاصة وخارجها عامّة، على كل المستويات، على المستوى العقدي من ارتكاس في الوثنية المقيتة في الجزيرة العربية والمجوسية التي تقدِّس النّار في فارس والصليبية والتثليث في بلاد الرومان وعلى المستوى الاقتصادي من مظالم وفقر فاحش وتفكُّك اجتماعي، وكان الناس ينطق لسان حالهم ينادون أين المُصلح؟ أين المُنقذ؟ فهم يتطلعون إلى الجديد القادر على تغيير حالهم نحو الأفضل.

٢ ـ بشارة الكتب السماوية بمبعثه. ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل البشارة بمبعث محمَّد في الكتب المنزلة على الأنبياء السابقين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ودعا إبراهيم ربه أن يبعث في العرب رسولاً منهم ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وبشَّر به عيسى وجاء في القرآن الكريم ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] وأعلم الله جميع أنبيائه ببعثته وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان واتّباعه إذ هم أدركوه ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

بناءً على البشارات الواردة في التوراة والإنجيل وتحديد زمن البعثة المشرّفة في التوراة، توقّع الناس بعثته، فقد عُرف عند الكهّان وشَاع بين النّاس قُرب مبعث نبيّ، من ذلك إخبار رهبان النّصارى ورجالاتها بقرب مبعثه ﷺ. منها:

- إخبار بحيرا الراهب عندما التقى بالرسول في بُصرى.
- إخبار نسطورا الراهب عندما سافر الرسول مع عمّه إلى بلاد الشام ثانية برفقة «ميسرة» في تجارة خديجة.
- إخبار راهب عمورية الذي آل إليه أمر سلمان الفارسي قال له: إنه قد أطلَّ زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجراً إلى أرض بين حرَّتين بينها نخيل، به علامات

لا تخفى. يأكل الهدية ولا يأكل الصّدقة، بين كتفيه خاتم النبوّة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

٣ ـ الــرؤى الكثيرة التــي رآها أناس عديــدون كلّها تحمل البشارة بمبعثه ﷺ. ومنها:

ـ رؤيا عمرو بن مرّة الجُهنــي، قال عمرو: خرجت حاجًّا في جماعة من قومي في الجاهلية فرأيت في نومــي وأنا بمكّة نوراً ساطعاً خرج من الكعبة حتى وصل إلى جبل يثرب وأشعَر جُهَيْنه «جبل على مشــارف ينبع» فســمعت صوتاً بين النور وهو يقول: انقشعت الظلماء، وسطع الضياء، وبعث خاتم الأنبياء.

رؤيا عبد المطلب: يقول: إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب، ورأيت نوراً أزهَرَ منها أعظم من نور الشــمس سبعين ضعفاً، ورأيــت العرب تُزهر، ورأيت رهطاً مــن قريش قد تعلّقوا بأغصانها ورأيت قومــاً من قريش يريدون قطعها فــإذا دنوا منها أخَّرَهم شــاب لم أرَ قط أحســن منه وجهاً ولا أطيب منه ريحاً، فيكســر أظهرهم ويقلع أعينهم فرفعت يدي لأتنــاول منها نصيباً فمنعني الشــاب. فقلت: لمن النصيب؟ فقال: لهؤلاء الذين تعلّقوا بها وسبقوك إليها. فانتبهت مذعوراً فزِعاً.

بدء الوحي:

اختار الله تبارك وتعالى محمَّداً العربي ليكون نبياً ورســولاً

لا للعرب وحدهم بل لكافة الناس، ولما بلغ الأربعين من عمُره بدأت تظهر له علامات النبــوة، وأول ما بدئ به من النبوة الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا في منامه إلا جاءت كفلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فلم يكن شــيء أحبّ إليه من أن يخلو بنفسه، فاختار عليه السلام غار حراء مكاناً للتعبُّد فيــه ابتعاداً عن ضوضاء مكَّة وضجيجها، وانقطاعاً عن الخَلق إلى الخالق جلّ وعلا. ويقع هذا الغار على قمّة جبل قريب من مكَّة، وهو مكان مناســب للخلوة والزُّهد والتفرُّغ للعبادة.

بدء وحيه ﷺ وصفته في تلك الحالة:

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت:

«أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم» ـ وفي رواية الصادقة ـ.

وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حــراء فيتحنّث فيه ـ وهو التعبُّد الليالي ذوات العدد ـ قبــل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه المَلَك فقال: اقــرأ، قلت: ما أنــا بقارئ، فأخذنــي فغطني؛ أي: ضمني إليه ضمًّا شــديداً حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنــا بقارئ، فأخذني فغطنــي الثانية حتى بلغ مني الجهد فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم

أرسلني فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فرجع بها رسول الله ﷺ يَرجُفُ فؤادُه، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: **(زمّلوني، زمّلوني)**، فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الدّهر، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ابن عم خديجة، وكان امرءًا قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربيَّ، فيكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي.

فقالت له خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس «الوحي والمراد به جبريل» الذي نزل الله على موسى، ليتني فيه جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: **(أو مُخرِجي هم؟)** قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومُك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي. أخرجه البخاري، باب كيف كان بدء الوحي.

عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ:

فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال: أحياناً يأتيني

مثل صلصلة الجرس وهو أَشدّه عليّ، فينفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثّل لي المَلك رجُلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة: ولقد رأيته يُنزل عليه في اليوم الشاتي الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليفصَّدُ عرقاً.

أخرجه البخاري ـ باب كيف كان بدء الوحي.

كان عليه السلام يبتهل إلى الله تعالى بالدعاء متبعاً لحنيفية إبراهيم عليه السلام ومهتدياً بدينه، فكان يتأمل النجوم والكواكب ويبحث عن سرّ هذا الكون العجيب الدّال على خالقه. وذات يوم وبينما هو غارق في العبادة ظهر عليه جبريل عليه السلام ولم يكن يعرفه من قبل وقال له: اقرأ. قال محمَّد: **(ما أنا بقارئ)** أي: أني أجهل القراءة والكتابة، فضمَّه جبريل إليه ضمّة شديدة كادت تتكسر بها أضلاعه وتنحَّى عنه ليعيد عليه الأمر نفسه: اقرأ. فأجاب عليه السلام بنفس الإجابة لأنه فعلاً لا يعرف القراءة والكتابة فضمّه إليه ثانية فثالثة ثم أملى عليه كلمات من ربّه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ....﴾ الآية [العلق: ١].

انصرف محمَّد ﷺ بعد ما سمع آيات الله تُتلى عليه فوعاها وحفظها، كان يتملكه الخوف من هول ما رأى وتسري في بدنه قشعريرة يخفق لها قلبه، وسارع بالعودة إلى المحضن الآمن، زوجته خديجة رضي الله عنها، فأمرها بأن تغطيه بثوب يزيل عنه البرد الذي تملَّكه. فهدأت من روعه وسكنت نفسه ثمّ أجابته بثقة كبيرة وهي المرأة اللبيبة الفطِنة الذكية: «كلا والله لا يخزيك الله

أبداً إنك لتصـــل الرحم وتحمل الكل وتكســـب المعدوم وتعين على نوائب الدهر». هكذا جاء جوابها شافياً للغليل ومطيباً للنفس ومُذهباً للوحشـــة، ثم انطلقت به إلى ابن عمهـــا ورقة بن نوفل، ليطمئنها ويبشر محمَّداً بأن له شأناً عظيماً في الأرض والسماء.

التقى محمَّد ﷺ بورقة بن نوفل عند الكعبة مرة أخرى فقصّ عليه ما جرى فطمأنه وهنَّأه بمنحة الله له، فبقي عليه السلام يتطلع لرؤية جبريل مرة أخرى حتى طال انتظاره، وذات يوم وبينما محمَّد عليه السلام يمشي إذ سمع صوتاً يناديه من السماء، فرفع بصره ليرى جبريل في صورة غير الصورة الأولى، يراه وهو جالس على كرسي معلق بين الســـماء والأرض فتملكه الرعب، وعاد إلـــى زوجه خديجة يطلب منها أن تدثره، فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧].

خبر تميم الدّاري:

قال تميم الـــداري: كنت بالشـــام حين بُعث رســـول الله ﷺ فخرجت إلى بعض حاجتي فأدركنـــي الليل، فقلت: أنا في جوار عظيم هذا الوادي، فما أخذت مضجعي إذ منادٍ ينادي لا أراه: عذ بالله، فإن الجن لا تجير أحداً على الله، فقلت: أيّمّ تقول؟ فقال: قد خرج رسول الأميين رسول الله، وصلينا خلفه بالحَجُون، وأسلمنا واتبعناه، وذهب كيد الجن، ورُميت بالشهب، فانطلق إلى محمَّد

فأسلم. فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب، فسألت راهباً به وأخبرته الخبر، فقال: صدقوك، نجده يخرج من الحرم، ومهاجره الحرم، وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه. قال تميم: فتكلفت الشخوص حتى جئت رسول الله ﷺ فأسلمت.

لقاء سلمان الفارسي مع رسول الله ﷺ:

قال سلمان: ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو بقباء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرأيتك أحق به من غيركم فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه **(كلوا)** وأمسك يده فلم يأكل. فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً، وتحوَّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله ﷺ وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقلت في نفسي: هاتانِ ثنْتان، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببقيع الغرقد قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليَّ شملتان لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وَصَف لي صاحبي؟ فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وُصف لي، فألقى الرداء عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته فأكببت عليه أقبّله وأبكي. فقال لي رسول الله ﷺ: **(تحوّل)**، فتحوّلت فجلست بين يديه،

فقصصت عليه حديثي، فأُعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه.

بدء الدّعوة سرًّا:

بعد انقطاع الوحي لفترة معينة، نزلت آيات من الذكر الحكيم تأمر محمَّداً ﷺ بالقيام بالدعوة إلى الله تعالى بعد التطهر والتحلّي بالصّبر.

فقام رسول الله ﷺ على الفور بتنفيذ ما أُمر به، وبدأ بدعوة أقرب الناس إليه زوجه خديجة فآمنت به وصدّقته، وبذلك تكون أول من آمن به وصدَّق بالإسلام. ومنذ ذلك اليوم عقدت العزم على إعانة زوجها ومؤازرته بكل ما لديها من وسائل حتى يتفرّغ لدعوته، فخديجة لديها من المال ما يكفيها ويكفيه وهي طوع أمر زوجها تشدُ أزره وتشجعه على القيام بما كلفه الله ﷻ به.

في بيت النبوّة تربّى زيد بن حارثة، إذ كان عبداً مملوكاً لخديجة فوهبته لزوجها فأعتقه وتبنّاه قبل الإسلام فعرض عليه الإسلام، فسارع إلى التصديق وآمن بالله ربًّا وبالإسلام ديناً ليكون المؤمن الثالث في الإسلام بعد محمَّد وخديجة.

وفي بيت النبوة تربّى الفتى علي بن أبي طالب. لاحظ الفتى أن محمَّداً وزوجه يصليان فاستفسر عن الأمر وسارع إلى الإسلام وكتم إيمانه، لأن الدعوة في بدايتها كانت سرًّا. وعلم بذلك

أبو طالب فلم يمنع ابنه من ذلك فكان أول صبي يدخل الإسلام وأضحت الأسرة في بيت النبوة متكاملة.

واصل رسول الله ﷺ دعوته إلى الله سرًّا وحاول الاتصال بكل من يثق بهم، ويثقون به، إذ ليس من السهل التسلّل إلى نفوسهم التي تَشبَّعت بحب دين الآباء والأجداد. كان أبو بكر أول المرشحين لذلك، فقد استجاب للدعوة وسارع إلى دعوة أهل بيته وأقرب أصدقائه عثمان بن عفّان الذي سارع للاستجابة وآمن بالإسلام، وبدأ عدد المسلمين يزداد يوماً بعد يوم، أسلم كل من:
ـ الزبير بن العوام ـ عبدالرّحمٰن بن عوف ـ سعد بن أبي وقاص ـ طلحة بن عبيد الله ـ أبو عبيدة عامر بن الجرَّاح ـ أبو ذر الغفاري وغيرهم كثير....

الجهر بالدعوة:

كان رسول الله ﷺ في بداية الدعوة يتصل بالرجال فرداً فرداً ويدعوهم إلى الإسلام، فكان يجد منهم استجابة حتى بلغ عدد أتباعه نحواً من ثلاثين وكان قد اتخذ لهم مكاناً آمناً يعلّمهم فيه دينهم، فكان الشبان يتسلّلون في ظلمة الليل إلى بيت الأرقم ابن أبي الأرقم يلتفون حول معلّمهم يحفظون آيات من الوحي ويفهمون معانيها.

كان المسلمون يخفون أمر دينهم ويسرّون به ولا يجهرون بعبادتهم خشية من قريش وسطوتها وتنكيلها وعملاً بأوامر

الرسول المربّي الداعية إلى الالتزام بالسرّية في هذه المرحلة من الدعوة.

بعد مضي ثلاث سنوات بدأ أَتباع محمَّد ﷺ في تزايد، كانوا يُخفون أمرهم ويُسرّون بدينهم وما إن أحسّت قريش بأن شيئاً ما يحدث في مكَّة حتى أخذت تترصد تحركات محمَّد وتتابع أخباره وتحصي خطواته خشية أن ينتشر أمره ويتفاقم خطره، واستمرت الدعوة في السر حتى جاء الأمر من السماء بإعلان هذا الدِّين ليصل إلى القاصي والداني: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

وبهذا الإعلان بدأت الدعوة الخطوات الأُولى نحو المرحلة الثانية ألا وهي الجهر بأمر الله وإسماع الناس آيات الذكر الحكيم.

صعد رسول الله ﷺ على الصفا ورفع صوته ينادي القبائل باسمها حتى اجتمع الناس وجعل الذي لا يستطيع الخروج يرسل من ينوب عنه لينظر الخبر. عندئذ قال عليه الصَّلاة والسَّلام كلمته بوضوح: **(أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)**. فقال أبو لهب: تباً لكَ سائر اليوم ألهذا جمعتنا! فنزل قوله تعالى مدافعاً عن رسول الله ﷺ: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١].

لما نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] جمع رسول الله ﷺ عشيرته مرّات متعددة، فكان يلين لهم القول

ويدعوهم إلى دين الله تعالى برفق، يرغّبهم في الدِّين الجديد، يبشّرهم بنعيم الجنة، وينذرهم عذاب الجحيم... كان عليه السلام كلما تكلّم في عشيرته أجابوه بكلام ليّن فيه تطييب للخاطر سوى أبي لهب الذي يقوم في وجهه بعُنف وشدة محذِّرًا قومه مغبّة السكوت على ما جاء به محمَّد من دين جديد، ويؤلّب عليه الناس ويدعوهم إلى مواجهة الدِّين الجديد بالرفض والمنع فيقوم أبو طالب ليعلن حمايته لمحمَّد ودينه ما بقي حياً.

تعرُّض الرسول ﷺ للإذاية:

لما صدع رسول الله ﷺ بالدعوة، كَبُر على قريش أن يعيب محمَّد أصنامهم ويأتي بدين جديد يدعو فيه إلى إلٰه واحد، فسخرت منه وآذته بكل أصناف الإذايات. كانت قريش تؤذي رسول الله بالسخرية، فكان كلما مر عليهم في مجالسهم يقولون، هذا ابن أبي كبشة يكلّم من السماء. وأبو كبشة هو زوج حليمة مُرضِعة رسول الله ﷺ.

وقد تولّى أبو لهب كبر هذا العمل الشائن وسخَّر نفسه بوقاً لقريش يتولّى نيابة عنها إيذاء الرسول الكريم.

لما دعا رسول الله ﷺ قبائل قريش إلى الإسلام سارع أبو لهب بتكذيبه والسخرية من دعوته، وتوهين شأنه وتأليب الناس عليه. ولم يكتفِ أبو لهب بالإذاية القولية بل كان يرمي القذر على بابه عليه السلام تشارك في ذلك العمل الشائن زوجته أم

جميل بنت حرب أخت أبي سفيان. كانت تحمل الحطب والأشواك وترمي بها في طريق رسول الله ﷺ. وأبو لهب الجار الأول لرسول الله وعمّه، بحيث لم يراعِ حق القرابة ولا حق الجوار. وقد انتقم الله ﷻ لرسوله فسلّط على عدو الله أمراضاً مات إثرها شرّ ميتة.

من الذين آذوا رسول الله ﷺ عدّو الله أبو جهل، فقد احتمل يوماً حجراً كبيراً يريد أن يرضخ به رسول الله وهو ساجد، لولا أن الله تعالى منعه من ذلك وأرهبه بفحل من الإبل فاتحاً فاه ليأكله، فرجع عدو الله إلى أصحابه ممتقع اللون من شدّة الفزع.

ومن الذين آذوا رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط. كان من جملة سوآته أن خنق رسول الله يوماً بثوب له وهو يصلي فجاء أبو بكر ودفع عنه عدو الله وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

عمد عقبة يوماً إلى فرث جزور فألقاه على النبيّ الكريم وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الحاضرين على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة الطغيان، حتى جاءت فاطمة بنت رسول الله فرمت عنه القذر. فلما قام عليه السلام دعا على من صنع هذا الصنيع القبيح فقال: **(اللهم عليك بالملأ من قريش)** وسمى أقواماً. قال ابن مسعود: فرأيتهم قتلوا يوم بدر.

ومنهم كذلك العاص بن وائل والد عمرو بن العاص، كان كثير السخرية برسول الله والتعريض به، كان يستخف بالبعث

والنشور ويقول: غر محمَّد أصحابه أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر. فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

ومن أبرز من اضطهد رسول الله ﷺ وكذب به، النضر بن حارث العبدي. كان عليه الصَّلاة والسَّلام يتنقل بين مجالس قريش يقص عليهم ما وقع للأمم السابقة ويذكّرهم بما حدث لها من عذاب، وما نزل عليها من نقمة إلٰهية جزاء عصيانهم وكفرهم، ويحذرهم من التعرّض لمثله إذا هم تمادوا في إعراضهم عن دين الله، فيأتي النضر ويتعرض لرسول الله بالتكذيب والتسفيه قائلاً للناس: هلموا يا معشر قريش فإني أحسن منه حديثاً، فيحدثهم عن ملوك فارس وما يدور حول بلادهم من أساطير، يقصد بها إلهاء الناس عن دعوة الحق وتفويت الفرصة على رسول الله، فنزل الوحي يفضحه أمام الملأ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦].

كانت الإذايات من قريش لرسول الله وصحابته تتنوّع وتزداد، وكانت الفئة المؤمنة تزداد إصراراً على الحق وثباتاً على التوحيد، وكرهاً للأوثان ومن يعبدها. كانوا يواصلون طريق الدعوة دون كلل أو ملل، بل يجدون في ما ينالونه من التعذيب دافعاً قوياً لمزيد العمل ونشر الحق. كان الله ﷻ يرقُب نبيّه بالرعاية والحفظ ويُنزل عليه من آيات الذكر الحكيم ما يفرّج به كربته ويعطيه زاداً لمواصلة الدعوة فيُنزل على قلبه: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٥، ٩٦].

فانتقم الله تعالى لرسوله من أعداء الحق وحماة الباطل، فمنهم من صُرع في معركة بدر، ومنهم من سلّط عليه وباء فأهلكه والله على كل شيء قدير.

إسلام حمزة:

حمزة بن عبدالمطلب عم رسول الله وأخوه من الرضاعة، رجل قوي بين قومه، شديد البأس، كان مولعاً بالصيد، كان سبب إسلامه حمية انتصاراً لابن أخيه وانتقاماً من أبي جهل. كان أبو جهل من ألدّ أعداء رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، لقيه يوماً فسبّه سبًّا قبيحاً وعاب دينه، فلم يرد عليه رسول الله بل مضى لشأنه وذهب عدو الله إلى مجلسه المعتاد عند الكعبة، وكانت أمةٌ لعبدالله بن جدعان شهدت الحادثة فانتظرت حمزة حتى عاد من الصيد وأخبرته الخبر، فتملكه حب الانتقام من أبي جهل، وانطلق بفرسه نحو مجلس قريش، وتقدّم نحو أبي جهل ورفع قوسه فضربه بها فشجّه شجّة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فردَّ عليّ إن استطعت. فقام رجال يريدون الانتصار لأبي جهل فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة فإني والله سببت ابن أخيه سبًّا قبيحاً.

وأسلم حمزة، ثار غضبه حمية ثم انشرح صدره للإسلام عندئذ علمت قريش أن رسول الله قد عزّ جانبه وقوي وأن حمزة سيمنعه فكفوا عن بعض ما ينالون منه.

إسلام عمر:

كان عمر بن الخطاب شـديداً على المسـلمين غير أن قلبه يميل إلى الرقّة في بعض الأحيان. كان يومـاً في الطريق فالتقى بإحدى المهاجرات إلى الحبشة مع زوجها فقال لها عمر: إلى أين يا أم عبدالله؟ فقالت له: قد آذيتمونا في ديننا نذهب في أرض الله حيث لا نُؤذى. فقال لهـا: صحبكم الله. فرأت فيه ليناً ورقّة، ولما جاء زوجها أخبرته بالأمر فقال لها متعجباً: ترجين أن يسلم، والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب.

وفي يوم من الأيام خرج عمر متوشـحاً سيفه تعلوه علامات الغضب يريد رسـول الله ورهطاً من قومه، وقد اجتمعوا في بيت عند الصفا وعددهـم يقرب من أربعين بين رجال ونسـاء، فلقيه نعيم بن عبدالله فقال له: أيْن تريد يا عمر؟ قال: أريد محمَّداً، هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش وسـفّه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله. فقال له نعيم: والله لقد غرّتك نفسُـك مِن نفسِك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمَّداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ وأخبره بإسلام أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد فاشتد غضبه وحول وجهته.

قفل عمر متوجهاً إلى بيت أخته متوعداً بالانتقام، ولما وصل أنصت فسـمع قراءة خافتة فـدق الباب بقوة. علمـت فاطمة أن الطارق أخوهـا عمر ولم يـأت لخير فأخفت الصحيفة وأسـرع خباب إلى الاختفاء داخل الحجرة، ودخل عمر وانهال على سعيد

يضربه، فتدخلت فاطمة فضربها على جبهتها فأدماها، عندئذ تحركت مشاعر الرقّة فيه وطلب من أخته أن تناوله الصحيفة، فطمعت في إسلامه وطلبت منه أن يغتسل فاستجاب وتناول الصحيفة فقرأ: بسم الله الرّحمٰن الرّحيم ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ .... ﴾ [طه: ١، ٢] فانشرح صدره لما قرأ ورق قلبه فقال: ما أحسن هذا الدِّين.

لما سمع خباب مقالة عمر خرج من مخبئه مسرعاً وهو يقول: يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيّه فإني سمعته أمس يقول: **(اللهم أيّد الإسلام بأحد العمرين، عمرو ابن هشام (أبي جهل) أو بعمر بن الخطاب)**. فالله الله يا عمر. وخرج عمر مسلماً بعد أن دخل إلى بيت أخته وسارع لملاقاة رسول الله ﷺ لينضم تحت لواء التوحيد، ففرح المسلمون بإسلامه وأصبح عمر درعاً حصيناً يحتمي به جند الله وازداد الإسلام قوة وعزّة، ووقعت في نفوس المشركين منه حسرة عميقة وحزناً دائماً لا يفارقهم أبداً.

الهجرة الأُولى إلى الحبشة:

عجز المشركون على الرد بالبرهان والحجّة فتحوّلوا إلى استعمال القوّة، وسلّطوا الأذى على كل من يتبع الدين الجديد، عندها قال النبي ﷺ لأصحابه: **(تفرقوا في الأرض فإن الله سيجمعكم)** وأشار إلى أرض الحبشة، فاستجاب لإشارته عشرة

رجال وخمس نسوة فتجهزوا للرحيل تاركين أموالهم وديارهم فراراً بدينهم، وكان أميرهم عثمان بن مظعون فساروا على بركة الله، ولما وصلوا البحر استأجروا سفينة أوصلتهم إلى الحبشة فأقاموا آمنين بعيداً عن أذى قريش. لكن الإقامة لم تتيسر لهم طويلاً لصعوبة العيش خاصة على النساء، فما لبثوا أن رجعوا إلى مكّة بعد ثلاثة أشهر ودخلوها في جوار بعض الكفار.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

بعدما دخل رسول الله ﷺ شعب أبي طالب وفتن أصحابه في دينهم وهو لا يستطيع دفع ما نالهم من بلاء، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة، وقال: **(إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه)**. فخرج الصحابة جماعات وكان عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً وثمان عشرة امرأة بقيادة جعفر بن أبي طالب والتقوا بقوم أبي موسى الأشعري من اليمن ممن أسلم وهاجر إلى الحبشة.

لما سمعت قريش بخبر المهاجرين جنّ جنونها، وطار عقلها، فأرسلت عمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة بهدايا ثمينة إلى النجاشي ليطرد المسلمين من بلاده، وأسرَّا إليه بأن المهاجرين هم من سفهاء القوم آووا إلى بلده وقد فارقوا دين قومهم ولم يتبعوا دين الملك، بل ابتدعوا ما لا يعرفه أهلهم ولا هو، وطالبوه باسم أشراف قريش أن يردهم إليهم، فوافق الأساقفة بعد أن

استلموا الهدايا، فدعا النجاشي المسلمين وسألهم عن هذا الدين الذي فارقوا به قومهم ولم يدخلوا في دينه ولا دين أحد من المِلل، فأجابه جعفر بن أبي طالب بأن قومه يعبدون الأصنام ويأتون الفواحش ويعيشون في جاهلية عظيمة.

قال جعفر: «أيها الملك.. كنا قوماً أهل جاهلية... نعبد الأصنام.. ونأكل الميتة... ونأتي الفواحش... ونقطع الأرحام... ونسيء الجوار.. ويأكل القوي منا الضعيف.. فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفّته، فدعانا إلى الله لنوحده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء... ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه واتبعناه، فلم نشرك بالله شيئاً ففتننا قومنا وعذبونا وآذونا حتى نرجع عن ديننا، فخرجنا إلى بلادك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك.

لما سمع النجاشي مقالة جعفر بن أبي طالب سأله هل يحفظ مما جاء به محمَّد ﷺ عن ربه شيئاً؟ فقرأ عليه آيات من سورة مريم فبكى النجاشي وأساقفته وقال: إنّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. وأقسم أن لا يُسَلّم المسلمين إلى رسولَيْ قريش. لكن عَمْراً لم ييأس، وجاء إلى الملك في الغد

وأخبره أنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً. فسأل النجاشي جعفراً فقال: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم البتول. فأعجبه جوابه، فأمر أن تُردّ إلى قريش هداياها، فخرج عمرو وصاحبه مخذولين من عنده وقد فشلت مكيدتهما وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار وأكرم جار.

الحصار:

تأكّد أبو طالب أن قريشاً عزمت على قتل ابن أخيه محمَّد، فدعا بني هاشم وبني المطلب لحمايته فأجابوه إلى ذلك مسلمهم وكافرهم حمية للانتماء القبلي، وفارقهم أبو لهب فكان مع قريش.

وقد تتابعت على قريش أحداث حيرتهم: أسلم حمزة بن عبد المطلب ثم تلاه عمر بن الخطاب، ورفض النبي ﷺ مساومتهم بالمال والجاه على أن يترك دعوته، وعرضوا على أبي طالب أن يعطوه شاباً يتبناه (عمارة بن الوليد) ويسلم إليهم ابن أخيه، فرد عليهم أبو طالب ساخراً: عجباً لكم تعطوني ابنكم أغذوه وأعطيكم ابني تقتلونه! فأسقط في أيديهم وعادوا خائبين، وعدّوا هذا الموقف دعماً لمحمَّد ودينه.

اجتمع المشركون في بيت لبني كنانة ليتباحثوا في أمر رسول الله، فإن حاولوا قتله عمَّت الفتنة مكَّة وطالبت قبيلته بدمه وخاصة بعد أن اتفق بنو المطلب وبنو هاشم على منعه وحمايته،

وبعد تقليبهم للأمر لجأوا إلى لون جديد من الإيذاء، وهو الحصار المُحكم والمقاطعة العامة للنبي وأصحابه، وعقدوا ميثاق ظُلْم وعدوان على أن لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يجالسوهم ولا يخالطوهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم حتى يسلموا لهم محمَّداً ليقتلوه. وكتبوا بذلك صحيفة أكّدوا فيها عهودهم بأن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا محمَّداً للقتل وعلقوها في الكعبة.

انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب أبي طالب وذلك في أول شهر محرم للسنة السابعة من البعثة. وشدد الكفار في الحصار فلم يتركوا طعاماً يصل إلى المحتبسين بالشعب ولا بيعاً إلا بادروا بإفساده، ليحرموا المحاصرين منه، حتى أجهدتهم المقاطعة واضطروا لأكل أوراق الأشجار والجلود وعلت أصوات النساء والصبية من الجوع. فكان لا يصل إليهم طعاماً إلا سرًّا، أو يشترون من القوافل التي تأتي مكَّة، وكان أهل مكَّة يزيدون عليهم في الأسعار حتى يعجزوا عن الشراء. وكان المشركون يمنعون التجار من مبايعتهم، وفي مقدمة المانعين أبو لهب، فعانى المحاصرون من البلاء والجهد ألواناً وطال الحصار ثلاثة أعوام.

نقض الصحيفة:

بعد ثلاث سنوات من الجوع والمعاناة والمقاطعة، وفي شهر محرم من السنة العاشرة من النبوة حدث نقض الصحيفة الظالمة

وفك الميثاق الجائر. قد كانت قريش منقسمة على نفسها من هذه المظلمة بين راضٍ بهذا الميثاق وكارهٍ له. قدم خمسة من الكارهين لهذا الظلم وطالبوا بنقض الصحيفة وكانوا من أشراف قريش، أما أمهاتهم فمن بني هاشم وهم:

- هشام بن عمرو العامري، وقد كان يوصل الطعام ليلاً إلى بني هاشم وهم في الشعب.
- زهير بن أبي أمية «المخزومي وأمه عاتكة» بنت عبدالمطلب (وهو ابن عمة الرسول).
- أبو البختري العاص بن هشام الأسدي، وله قرابة ببني هاشم.
- زمعة بن الأسود بن المطلب الأسدي، وله أيضاً قرابة ببني هاشم.
- المطعم بن عدي النوفلي، وله أرحام في بني هاشم وبني المطلب.

اجتمع هؤلاء الخمسة ليلاً واتفقوا على نقض الصحيفة، وتعهّد زهير أن يكون أول المتكلمين، فلما أصبحوا غدا زهير وعليه حلّة من أحسن اللباس فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكّة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يُباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة. فأجابه أبو جهل: كذبت والله لا تشق. فقام زمعة بن الأسود وقال: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كُتبت. وأيّده أبو البختري فقال: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نُقرُّ به.

وجاء دور المطعم بن عـــدي فصدقهما وكذب من قـــال غير ذلك، وتبرأة إلى الله منها ومما كتب فيها. وفعل هشام بن عمرو مثل ذلك، فقال أبو جهل: هذا أَمْرٌ قضي بليل، وتشاورتم فيه بغير هذا المكان.

هذا ما كان من أمرهـــم، أما ما كان من أمـــر الصحيفة، فقد أرســـل الله عليها الأَرَضة فأكلت جميع ما فيهـــا من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله واسم محمَّد ﷺ. ثم أطلع الله رسوله على ذلك، فأخبر عليه السلام عمّه أبا طالب، فسارع إلى قريش فأعلمهم بما قال ابن أخيه ووعدهـــم إن كان كاذبـــاً أن يُخلّيَ بينهم وبينـــه، فقالوا: قد أنصفت وبعد جـــدال ونقاش بين القوم وأبـــي جهل، قام المطعم ليشـــق الصحيفة وســـار معه القوم، فوجدوا الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللَّهمَّ) تماماً كما أخبر رســـول الله. وبهذا انتهى الحصار وعاد المســـلمون إلى ديارهم غير أن قريش استقبلتهم بمزيد من الحقد والعدوان.

عام الحزن:

خرج رسول الله ﷺ وأتباعه من حصار المشركين له وعاد إلى مكَّة لمواصلة الدعوة إلى الله، وفي تلك الفترة اشتكى أبو طالب واشتد به المرض فذهب إليه أشراف قريش وفيهم:

عتبة بن ربيعة، شـــيبة بن ربيعة، أبو جهل بن هشام، أمية بن خلف وأبو ســـفيان بن حرب، وطلبوا منه أن ينصح ابن أخيه بأن يكف عنهـــم، ويكفوا عنـــه، وأن يدعهـــم لدينهم ومـــا هم فيه،

ويدعونه ودينه، فبعث أبو طالب إلى ابن أخيه وأخبره بالأمر قائلاً: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: **(نعم، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم)**.

عندما سمع أبو جهل مقالة الرسول الكريم قال: نعم، وأبيك وعشر كلمات. فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: **(تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه)** فتعجَّب الحاضرون من الردّ وقالوا: أتريد يا محمَّد أن تجعل الآلهة إلٰهاً واحداً، إنّ أمرك لعجب؟! ثم قال بعضهم لبعض: إنه والله ما هذا الرجل معطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم.. ثم تفرقوا. فقال أبو طالب: والله يابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً. فلما قالها فرح رسول الله ﷺ وطمع في إسلامه، إلا أن أبا طالب مات ولم يسمع منه رسول الله ما يسرّه، وكان ذلك في السنة العاشرة من البعثة.

وفي العام نفسه توفيت خديجة رضي الله عنها، وقد كانت السند المعنوي لرسول الله ﷺ، تخفف عنه همومه وأحزانه، وتحمل أفكاره وعقيدته، وتجاهد معه بنفسها ومالها حتى نالت مرضاة الله تعالى. وبشّرها جبريل عليه السلام بسلام ربها عليها وأنّ لها بيتاً في الجنة من قصب لا رهق فيه ولا صخب. توفيت الزوجة الصالحة لتترك فراغاً كبيراً في حياة الرسول الكريم، فحزن عليها حزناً شديداً، لكنه احتسب أجره عند الله تعالى، واستجمع قواه لمرحلة جديدة من الجهاد، وقد سُمي هذا العام «عام الحزن».

زواجه عليه السلام من عائشة:

بعد مرور شهر على وفاة خديجة رضي الله عنها، عقد رسول الله ﷺ على سودة بنت زمعة العامرية القرشية بعد وفاة زوجها إثر عودتها من الحبشة، ودخل بها في مكّة. وبعد ذلك بشهر عقد عليه السلام على عائشة بنت صدّيقه أبي بكر، وهي البكر الوحيدة من زوجاته، إلا أن الدخول بها تم بالمدينة المنورة عند هجرته ﷺ إليها، فكان لها الحظ الأوفر من رسول الله ﷺ علماً وفقهاً.

دعوة أهل الطائف:

اشتد الأذى على رسول الله ﷺ من القريشيين بمكة، فأراد أن يغيّر مكان دعوته علّه يجد آذاناً صاغية وقلوباً مفتوحة، فقصد الطائف بمفرده، وتعمّد أن لا يصحبه أحد من أتباعه سوى زيد بن حارثة، وكان يُعرف بـ(زيد بن محمَّد). التقى عليه الصَّلاة والسَّلام بزعماء الطائف، إلا أن هؤلاء تنكروا لما يتصف به العرب من كرم الضيافة، فسخروا من ضيفهم واستهزأوا به وطردوه، بل وسلّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم فسبّوه وشتموه ورموه بالحجارة حتى أدموه، وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة يحتمي به، ويستظل بأشجاره بعد المعاناة والرهق الشديد.

جلس رسول الله ﷺ إلى ظل الشجرة وفي قلبه من المرارة ما أنطق لسانه بدعاء مؤثر: **(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقِلَّة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب**

المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي).

سمع ابنا ربيعة دعاء الرسول الكريم فأشفقا عليه، فبعثا إليه غلامهما النصراني واسمه «عداس» يقطف له عنباً، ولما همّ رسول الله ﷺ بالأكل قال: **(باسم الله)**، فاندهش عدّاس وسأله النبي عن بلده ودينه فعلم أنه من بلدة «نينوى» قرية يونس ابن متّى، فأثنى عليه الرسول وقال له: **(ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي)**.

لما علم عدّاس بالأمر انحنى على رسول الله يقبّل رأسه ويديه، فما كان من عتبة وشيبة إلا أن يتدخلا لمنع الغلام من مواصلة حديثه ولقائه برسول الله ﷺ، وحذّراه من دين محمَّد وقالا له: «ويحك يا عدّاس»، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

وانطلق الرسول ﷺ صوب مكّة راجعاً من الطائف، وفي الطريق توقف بمكان اسمه نخلة، فقام في جوف الليل يصلي، فمر به نفر من الجن فاستمعوا له وهو يقرأ القرآن، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين. فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

الإسراء والمعراج:

بعد أعوام طويلة من الجهاد المرير والمعاناة القاسية، كان

آخرها ما أُصيب به رسول الله ﷺ من أذى أهل الطائف ومرارة الدخول إلى مكّة، بعدها في جوار كافر وهو المطعم بن عدي شاء الله تعالى أن يُكرم نبيّه ويُريه من آياته ما يَملأ قلبه ثقة به ويطمئنه إلى صدق رسالته واستقامة منهجه، فجاءت حادثة الإسراء والمعراج، أما الإسراء فهو تلك الرحلة الليلية التي يسَّرَها الله ﷻ لرسوله الكريم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى المبارك على ظهر البراق، وأما المعراج فهي تلك الرحلة من الأرض إلى السماء بهيئة لا يعلمها إلا الله ﷻ.

كانت الرحلة على ظهر البراق، وهو دابة بين الحمار والبغل، تضع حافرها في منتهى طرفها، شديدة السرعة. لما وصل رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس، التقى بإخوانه الأنبياء منهم: إبراهيم وعيسى فأمَّهم في الصلاة رمزاً لقيادته للناس أجمعين وهيمنة شريعته على الشرائع كلها، ثم أُوتي بإناءَين في أحدهما خمر وفي الآخر لبن، فاختار عليه السلام اللبن وأعرض عن الخمر، فقال له رفيق الرحلة جبريل عليه السلام: هُديت للفطرة وهُدِيت أمتك يا محمَّد.

لما فرغ رسول الله ﷺ مما كان فيه جِيء بالمعراج فأصعده صاحبه جبريل عليه السلام فيه حتى انتهى به إلى السماوات العلا سماءً بعد سماء. كان يلتقي في كل سماء بأحد الرُّسل فيستقبله بهذه الكلمة: مرحباً بالأخ الصالح، وهي دلالة على الأخوّة القائمة بين سائر الأنبياء والمرسلين. وفي هذه الليلة المباركة في الملأ الأعلى فَرَض الله تعالى على المسلمين خمس صلوات بأجر

خمسين صلاة إكراماً لمحمَّد ﷺ وأمته. وبعد هذه الرحلة الممتعة، عاد عليه السلام إلى مكَّة من ليلته، أمضى عزيمة وأقوى يقيناً بهذا الدين العظيم.

زَعم بعض الناس أن محمَّداً ﷺ رأى ربه لما انتهى إلى سدرة المنتهى، وهذا وَهْمٌ وقعوا فيه. فقد ذكرت روايات أن رسول الله ﷺ نفى ذلك عندما سُئل عن ذلك. كما أن عائشة رضي الله عنها سُئلت عن الموضوع نفسه بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فاقشعر بدنها من هذا الزعم الباطل، وانزعجت من مثل هذه الأسئلة وقالت: «من زعم أن محمَّداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية» والله تعالى منزه عن أن يراه الإنسان بهذا البصر القاصر وهو القائل عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وفي صبيحة الحادثة أخبر الرسول ﷺ قريشاً بما جرى سخرت منه وكذبته، وأسرع المشركون إلى أبي بكر وأخبروه عما سمعوا من صديقه، وهم يطمعون منه أن يكذِّب صاحبه، فقالوا له بلهجة ساخرة: إن صاحبك يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس، وصلى فيه، ورجع إلى مكَّة، فقال أبو بكر بثقة كبيرة: والله لئن قاله فقد صدق، فما يعجّبكم من ذلك، فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه، ثم إن رسول الله ﷺ أقام البراهين لمشركي قريش على صدق حديثه، فأخبرهم عن

عيرهم في مسـراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقـت قدومها، وعن البعير الذي يتقدمها، وكان الأمر كذلك فلم يزدهم ذلك إلا نفوراً وأبى الظالمون إلا كفوراً.

عن عبد الله ﷺ قال: لما أُسرِي برسول الله ﷺ، انتهى به إلى سدرة المنتهى، وهي السماء السادسـة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبـض منها، وإليها ينتهي مـا يهبط به من فوقها فيقبض منها، وقـال: ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [النجم: ١٦]. قال: فراش من ذهب قال: فأُعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطي الصلوات الخمس، وأُعطي خواتم سـورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شـيئاً من المقحمـات. والمقحمات التـي تقحم، أي تدخـل صاحبها النار، من ذلـك ارتكاب الكبائـر كالزنا والربا والخيانة وأكل أموال اليتامى وغيرها. أخرج الحديث مسلم في الإيمان.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء في بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربتُ مثله قط، فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسـألوني عن شـيء إلا أنبأتهم، وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسـى قائم يصلي فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شـنوءة (اسـم قبيلة يقال: أزد شنوءة)، وإذا عيسـى ابن مريم قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسـعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلي أشبه الناس به

صاحبكم (يعني نفسه) فجاءت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت من الصلاة قال لي قائل: يا محمَّد هذا مالك صاحب النار فسلم عليه. فالتفت إليه فبدأني بالسلام». أخرجه مسلم في كتاب الإيمان.

العقبة الأولى:

خرج رسول الله ﷺ في موسم الحج يعرض نفسه على القبائل يدعوهم إلى الإسلام ونبذ عبادة الأوثان. بينما هو عند العقبة التي ترمى منها الجمار، التقى برهط من الخزرج ودعاهم إلى الإسلام فأجابوه ثم انصرفوا إلى يثرب، فأخبروا أقوامهم بما رأوه من ظهور الحق الذي كانوا يسمعون عنه من اليهود في مناسبات عدة. وفي العام التالي قدم اثنا عشر رجلاً من الأنصار فاجتمعوا برسول الله ﷺ وبايعوه على الإسلام والنصرة لدين الله، والسعي إلى نشره في يثرب بين أقوامهم. قال عبادة بن الصامت: بايعنا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الأولى أن لا نشرك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فبشّرهم الرسول بالجنة. ووفوا بعهودهم وأرسل معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الدين الجديد.

العقبة الثانية:

خرج عدد من الأنصار من يثرب قاصدين الحج مع قومهم

يحدوهم العزم للاجتماع برسول الله ﷺ لمبايعته وإيوائه في مدينتهم والدفاع عنه، وكانوا قد أسلموا على أيدي الأنصار الأوائل، وفقهوا دينهم على يدي مصعب بن عمير، وكان يتقدمهم البراء بن معرور سيدهم وكبيرهم. لما فرغ الناس من الحج توجه الأنصار إلى العقبة وفاءاً بالموعد الذي حددوه لرسول الله، وتسللوا من مضاربهم واحداً بعد الآخر مبالغين في التكتم والسرّية، حتى تم عددهم ثلاثة وسبعين رجلاً معهم امرأتان: نسيبة بنت كعب من بني النجار، وأسماء بنت عمرو من بني سلمة.

صحب العباس ـ وهو على دين قومه ـ رسول الله ﷺ أراد أن يستوثق لابن أخيه ويشهد الحدث معه، تكلم العباس بن عبد المطلب وأظهر لهم أن ابن أخيه لا يزال في منعة ما دام بينهم في مكَّة، غير أنه أبى إلا الخروج إلى يثرب، فحرَّض الأنصار على حمايته والوفاء بعهودهم. وبعد ذلك تكلم رسول الله ﷺ فدعا إلى الإسلام ورغّب فيه وطلب النصرة من الأنصار له ولدين الله تعالى، وأن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم. فقام البراء بن معرور سيد القوم وأخذ بيده الكريمة عليه السلام ثم قال: نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه نساءنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحلقة ورثناه كابراً عن كابر.

بايع الجميع رسول الله ﷺ، وكان أول المبايعن أسعد بن زرارة والبراء بن معرور، ثم اختار رسول الله منهم اثني عشر نقيباً، وأمَّرهم على قومهم، وبذلك يكون رسول الله ﷺ قد نجح

في إيجاد موطن جديد لدعوته يقصده المسلمون ويأمنون فيه على حياتهم وعقيدتهم، ويصدعون فيه بأصواتهم عالية بكلمة التوحيد دون خوف ولا وجل. وفارق الجمع رسول الله يملأهم الحب لله ولرسوله ولدينه، وهي من بواكير الثمار الجنية لدعوة الرسول ﷺ خارج مكَّة.

طلائع الهجرة:

بعد إعداد المكان الجديد، أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة. فكان من أوائل المهاجرين إلى المدينة، قبل بيعة العقبة، أبو سلمة بن عبد الأسد، كان قد قدم إلى مكَّة من الحبشة، فآذته قريش فسارع بالخروج من المدينة، وقد علم أن رجالاً أسلموا وحسن إسلامهم من الأوس والخزرج. وكان من أوائل المهاجرين بعد العقبة الكبرى عامر بن ربيعة صحبته زوجته ليلى بنت أبي حثمة، وتلاهما عبد الله بن جحش احتمل معه أهله وأخاه عبد بن جحش، كما خرج صهيب الرومي وافتدى نفسه من طغاة مكَّة بكل أمواله والتحق بيثرب فاراً بدينه تاركاً وراءه المال والدنيا. ثم خرج المسلمون زرافات ووحداناً تاركين مكَّة، وهاجر عمر، وتتابع المهاجرون حتى تكاد تخلو من المسلمين.

دار الندوة:

هي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا

فيها. اجتمع المشركون في دار الندوة يفكرون في طريقة لمواجهة محمَّد وأصحابه الذيــن تتابعت هجرتهم إلى المدينة. كما ســمع الكفار بمبايعة الأنصار لرسول الله واستعدادهم للدفاع عنه، وشعروا بخطر اســتقرار المســلمين بالمدينة لأنهم يهــدّدون طريق قريش التجاري. لذلك دعا قادة قريش رؤســاء القبائل ورموز الشرك إلى الاجتمــاع، للنظر في هذا الخطــر الداهم عليهــم، فعقدت قريش أخطر اجتمــاع حضره رموز الشــرك: أبو جهل وعتبة وشــيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان وجبير بن مطعم، والنضر بن الحارث وأمية بن خلف، وأبو البختري وحكيم بن حزام، ونبِيه ومنبه ابنا الحجاج.

التأم الاجتماع بقيادة أبي مرّة إبليس اللعين في هيئة شــيخ نجدي عرض مشــاركته في الاجتماع للنصح والرأي. كان هدف المشركين في لقائهم ذلك أن يقرروا خطة حاسمة تضمن القضاء على الإسلام وصاحب الرســالة، قبل أن تزداد قوّته وينتشر أمره. وبدأ النقاش بين الحاضريــن بتقديم المقترحات. فعرض أحدهم إخراج النبي من مكَّــة ونفيه من البلاد، فرفض الشــيخ النجدي الاقتراح منبهاً إلى أن خروجه يقوي جماعته ويجمع الأتباع حوله لاستطاعته على التأثير. واقترح آخر أن يُحبس في الحديد وتغلق عليه الأبواب حتى يدركه الموت كما أدرك أمثاله من الشــعراء. فلم يقبل إبليس هذا الاقتراح لأن هــذا احبس لن يحبس دعوته وان أصحابه سوف يقومون بتخليصه.

أما أبو جهل فكان اقتراحه في أشــد الخطورة حتى نال موافقة

الجميع وإعجاب الشـيخ النجدي. قال: تختار قريش من كل قبيلة فتى شـاباً جلداً، ويعطى سـيفاً صارماً، ثم يحيط الجميع بمحمَّد ويضربونه ضربة رجل واحـد، فيقتلونه، ويتوزع دمـه بين القبائل جميعاً، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم فيرضون بالدية. فبارك إبليس هذا الاقتراح ووقّع الإجماع على تنفيذه. ونسوا أن الله يحفظ نبيّه الكريم قائلاً له: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهو القائل تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

الهجرة الكبرى:

أذن الله لنبيّه عليه الصَّلاة والسَّـلام بالهجرة، فذهب إلى أبي بكر في الهاجرة متخفياً، فبشره بالصحبة وليتفق معه على الإعداد لهذه الرحلـة المباركة، وكان أبو بكر قد أعـد راحلتين وعلفهما اسـتعداداً للهجرة، فاتفق النبي ﷺ مع صاحبه علـى اللقاء ليلاً خارج مكَّـة. وكانت تلـك الليلة هـي موعد تنفيذ المشـركين لمؤامرتهم الدنيئة. فلما حان وقت خروجه عليه السلام، أمر عليًّا أن ينام مكانه ويتدثر بعباءته ثم يـؤدي بعدها ودائع النـاس وأماناتهم. فانطلق النبي وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ [يـس: ٩] فألقـى الله النوم على الكفـار وطمس علـى أبصارهم، فخـرج عليه السلام يحثو التراب على رؤوسهم محفوفاً برعاية الله وحِفظه.

التقى النبي ﷺ مـع صاحبه الذي أخذ معه كل ماله، فسـارا

حتى بلغا غار ثور فاختفيا فيه، وكانا قد استأجرا دليلاً ماهراً أميناً، واتفقا معه على اللقـاء بعد ثلاث ليال في المكان ذاته. وقد تعمّد الرسـول ﷺ التوجه إلى الطريق المؤدي إلى اليمـن، والبقاء في الغار ثلاثة أيام حتى تخف المطاردة التي كان يتوقعها من قريش، حيث ستجدّ في طلبه على طريق المدينة لتدركه قبل وصوله إليها. وصدق ظن الرسول الكريم حيث جدّت قريش في الطلب وأغرت الناس بالجوائز الكبيرة تحريضاً لهم على تعقب الرسول وصاحبه، وغاب عنهم أن من كان الله معه فلن يخيب أبداً.

أعدَّ الرسـول القائد عليه الصَّلاة والسَّلام الخطة بدقة ليهيء لها كل أسـباب النجاح. فقد كلف عبدالله بـن أبي بكر بالمبيت معهما ليخرج بسحر إلى مكَّة، فيسمع تقلبات الأحداث وما يتردّد على الألسن ويطلع على كيد قريش وخطتها الجهنمية في تعقب الرسول وصاحبه، ثم يمشـي ليلاً عند الرسول ليخبره بما يجري في ربـوع مكَّة، وأما راعي أبي بكر عامر بـن فهيرة فكان يرعى الغنم ليريح قرب الرسول وصاحبه ليأخذا حاجتهما من اللبن، ثم يمر بغنمه ليزيـل أثر أقدام عبـدالله بعد ذهابه إلـى مكَّة. ولما علمت قريش بفشلها ورأت ضعف كيدها وتوقعت نجاة الرسول الكريم، ثارت ثائرتها وسارعت في طلبه ورصدت مائة ناقة لمن يدل على محمَّد أو يأتي به.

كانت جائزة قريش كبيرة ومغرية لأصحاب النفوس الضعيفة، تسابق المطاردون طمعاً في الجائزة وتفرقوا في كل الجهات حتى

وصل بعضهم (بعد اقتفاء الأثر) إلى الغار الـذي يقيم فيه النبي وصاحبه، لكـن الله ﷻ أعمـى أبصارهم بعد عمـاء بصيرتهم، فاستبعدوا وجود ضالتهم فيه وقد نسج العنكبوت بيته على بابه. قال أبو بكر: لو أن أحدهم نظر إلى موضـع قدميه لرآنا. فطمأنه رسول الله قائلاً: **(ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا)**. وفي ذلك نزل قولـه تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

جاء الدليل في الموعـد بعد أن جهز الراحلتين وهو عبدالله بن أريقط. وجاءت أسـماء بنت أبي بكر بالسفرة، شقت نطاقها نصفين علقت السفرة بنصف ولبست الثاني فسميت بذات النطاقين. وانطلق الركب متجهاً جنوباً إلـى اليمين ثم غرباً نحو السـاحل، حتى إذا وصل الدليل إلى طريق لم يألفه الناس اتجه شـمالاً على مقربة من الشاطئ وواصل السير في طريق غير مسـلوك، وطوال الرحلة كان أبو بكر وراء رسـول الله يَحميه من المفاجآت حتى إذا لقيهما أحد سأل أبا بكر: من هذا معك؟ قال: هذا يهديني الطريق سبيل الخير.

سمع سراقة بن مالك في مجلس قومه بني مدلج رجلاً رأى أسودة على الساحل ظنهما محمَّداً وصاحبه، فتجاهل سراقة الأمر واستبعد أن يكون صحيحاً، لكنه ما لبث قليلاً حتى انطلق بفرسه يلاحق رسـول الله ﷺ، حتى إذا دنا من الركب عثرت به فرسـه وخرّ عنها، ثم قـام وركب حتى اقترب من النبي وسـمع قراءته والرسول مطمئن لا يلتفت وأبو بكر يكثر من الالتفات، فساخت

قوائم فرسه حتى الركبتين فسقط سراقة، وزجرها فنهضت وثار منها غبار كالدخان، فنادى بأمان، فتوقف الركب ووقع في نفس سراقة أن الرسول منعه الله تعالى وسيظهر أمره، فعرض عليه الزاد فلم يأخذ الرسول بل سأله أن يخفي أمره ووعده سِوار كسرى إن هو فعل ذلك.

عاد سراقة يردّ الملاحقين ويؤكد أنه كفاهم هذه الجهة. مضى رسول الله ﷺ في طريقه ومرَّ بخيمة أم معبد وكانت تطعم المارّة فسألاها، قالت لو كان عندنا شيء لأكرمناكم، فنظر النبي عليه السلام إلى شاة خلّفها المرض عن الغنم وهي هزيلة، فاستأذن في حلبها ومسح ضرعها بيده وسمى الله ودعا، فدرت اللبن وملأت الإناء، فشربت أم معبد وشرب هو وصاحباه حتى رووا، وحلب ثانية فترك لها الإناء مملوءاً وارتحل، فلما جاء زوجها عجب من اللبن ولا حلوبة في البيت، فأخبرته بالرجل المبارك الذي مرّ بها ووصفته، فقال زوجها إنَّهُ صاحب قريش الذي تطلبه.

من الملاحقين لرسول الله وصاحبه أبو بريدة، خرج طمعاً في المكافأة، فلما كلمه النبي ﷺ أسلم مع سبعين من قومه، كما التقى عليه السلام بالزبير وهو عائد من تجارة بالشام فكسا النبي وأبا بكر ثياباً بيضاء ثم واصل الركب طريقه إلى المدينة تحفّه رعاية الله تعالى حتى بلغ قباء، فنزل بها ووجد أقواماً يحبّون أن يتطهروا فنزل فيهم قرآن يتلى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

النزول بقباء وبناء المسجد:

سمع المسلمون في المدينة بخروج رسول الله ﷺ من مكّة، فكانوا يذهبون غداة إلى الحرّة، وهي مكان مشهور قرب المدينة ينتظرون قدومه حتى يردّهم حر الظهيرة. وذات يوم بعد أن أجهدهم الانتظار وأحرقتهم الشمس، عادوا إلى بيوتهم، عندها صعد يهودي على مرتفع لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله وصحبه يظهرون تارة ويختفون أخرى فصاح: يا معشر العرب هذا صاحبكم قد جاء. فتسارع المسلمون إلى أسلحتهم ليتلقوا رسول الله بظهر الحرّة، ولما وصل النبي عليه السلام إلى بني عمرو بن عوف سمع التكبير وقد استبشر المسلمون بمقدمه وهلّلوا وكبّروا فتلقوه وحيّوه بتحية النبوة وأحاطوا به.

بينما كان رسول الله ﷺ يمشي في سكينة ووقار وقد استقبله الناس خير استقبال وأكرمه، اتجه بهم إلى اليمين حتى نزل بهم في بني عمر بن عوف. فقام أبو بكر للناس وجلس النبي عليه السلام ساكتاً. وجاء الأنصار ممن لا يعرف النبيّ ولم يروه يحيّون أبا بكر حتى أصابت الشمس النبي فظلل عليه أبو بكر بردائه فعرف الناس رسول الله آنذاك.

كان يوم وصول رسول الله إلى قباء يوماً مشهوداً، لم تَرَ المدينة مثله في تاريخها، فقد زحفت الجموع للاستقبال والترحيب بالنبيّ الأكرم صلوات الله عليه وسلامه.

نزل الرسول ﷺ بقباء على كلثوم بن الهدم. فأقام فيها أربعة

أيام أسّس بها مسجداً صلّى فيه، وهو أول مسجد بُني على التقوى. وفيه نزل قوله تعالى: ﴿أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨].

ولما كان يوم الجمعة ركب بأمر الله تعالى له وأردف أبا بكر وأرسل إلى أخواله بني النجار فجاؤوا متقلدين سيوفهم، وقد أدركته عليه السلام الجمعة في بني سالم بن عوف، فأدّى الجمعة بالناس في المسجد الذي في بطن الوادي، وكان عددهم مائة رجل، ثم توجه بعدها إلى المدينة المنوّرة.

الوصول إلى المدينة:

بعد الاستراحة التي قضاها الرسول ﷺ بقباء وتشييده لأول مسجد في الإسلام، اتجه إلى يثرب للإقامة بها، وكان الأنصار وهم سكان المدينة ينتظرون وصوله بفارغ الصبر، إذ بلغتهم دعوته عن طريق مصعب بن عمير وجماعته، فمالت نفوسهم إليها وآمنت بها قلوبهم بعد أن وعتها عقولهم. خرج الرجال والنساء والصبيان للقائه ينشدون:

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا — ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا — جئت بالأمر المطاع

وكان كل واحد من الأنصار يود أن يفوز باستضافة رسول الله ﷺ في بيته.

كان وصوله عليه الصَّلاة والسَّلام إلى المدينة في الثاني عشر من ربيع الأول، بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة في يوم مبارك وهو يوم الجمعة، فأدّى بها أول صلاة جمعة، وكانت خطبته عبارة عن نصائح وإرشادات وتوجيهات للمسلمين، فيها الترغيب في الجنّة والترهيب من النار. ثم سار ركب رسول الله ﷺ وهو راكب ناقته، وكلما مرّ على دار من دُور الأنصار التمس منه أهلها أن ينزل عندهم آخذين بزمام الناقة إلا أنه عليه السلام كان يطيب خواطرهم ويجيبهم: **(دعوها فإنها مأمورة)**، ولم تزل عليه السلام ناقته سائرة حتى وصلت إلى فناء لبني النجار، وأمام دار أبي أيوب الأنصاري بركت وفي الموضع ذاته بني مسجد رسول الله ﷺ وبيته الذي يقيم فيه.

بناء المسجد:

بركت ناقة رسول الله ﷺ في فناء كان يستعمل لتجفيف التمر، وكان هذا المربد مِلكاً لسهل وسهيل ابني عمرو وكانا يتيمين، فأراد إهداءه لرسول الله ﷺ، غير أنه لم يقبل وابتاعه منهما ليبني عليه مسجده. وأثناء بناء المسجد كان عليه الصَّلاة والسَّلام يقيم عند أبي أيوب الأنصاري. بدأ الرسول ببناء المسجد وشارك فيه الأنصار والمهاجرون ولم يستغرق بناؤه وقتاً طويلاً

لبساطته، كانت جدرانه من طين، وأعمدته من جذوع النخل، وسقفه من جريد. له ثلاثة أبواب من جهة الشرق والغرب والجنوب، أما القِبلة فكانت إلى بيت المقدس من جهة الشمال.

تركيز مبدأ الأخوَّة:

لم تكن فرحة الأنصار بمقدم الرسول فحسب، بل شملت إخوانه المهاجرين، الذين وجدوا حفاوة في الاستقبال ومنافسة في البذل والإكرام، فكان كل أنصاري يريد أن يؤوي مهاجراً عنده، ووصل بهم الأمر إلى تحكيم القرعة، فما نزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة. كانت معاملة الأنصار للمهاجرين تفوق التصوُّر، إذ كانوا يفضّلونهم على أنفسهم، ويتنازلون عن أموالهم لفائدة إخوانهم المهاجرين، فأقر الرسول ﷺ مبدأ الأخوة بين المهاجرين والأنصار فكان كل أنصاري ونزيله المهاجر أخوين.

وأمام هذا الاستقبال الكبير كان المهاجرون أصحاب عفّة وكرامة، ولتخفيف العبء على إخوانهم الأنصار خرجوا يبحثون عن أعمال ويطلبون الرزق في خبايا الأرض، كل حسب اختصاصه. أما عبدالرّحمٰن بن عوف فاختار مكاناً في السوق ليبيع الرطب والجبن (الإقط) وكان ماهراً حاذِقاً في التجارة، استطاع في مدة وجيزة أن يجمع ثروة كبيرة، وأما أبو بكر وعمر وعلي فكانوا يمتهنون الزراعة في مزارع إخوانهم الأنصار. وقد

نزل الوحي يمدح الأنصار ويعلي من قدرهم: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

الوثيقة:

كتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وَادَع فيه على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم. ومن أهم ما ورد فيها ما يلي:

ـ المسلمون جميعاً من مهاجرين وأنصار ومن تبعهم ولحق بهم وجاهدَ معهم أمة واحدة، بعضهم أولياء بعض، يتعاونون على فك أسراهم وتسديد ديون الغارمين منهم، ينصرون بعضهم بعضاً ولا ينصرون الكفار على المؤمنين.

بهذا التقرير الأول تكوّن المجتمع الإسلامي المدني. وفيه من التوسعة ما يستوعب جميع الطوائف على اختلاف قبائلهم ودياناتهم. فالإسلام قادر على أن يستوعب أصنافاً من الناس ويوفي لكل حقّه.

أما البند الثاني من الوثيقة فينص على أنه: لا يحل لمؤمن منهم اعترف بالصحيفة وبما فيها وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محارباً كافراً أو يؤويه، وأن من نصره فعليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يقبل منه صرف ولا عدل، وهذا لا يتنافى مع ما جاء في قوله ﷻ في سورة التوبة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦]. فالإسلام مفتوح على كل الطوائف ما لم يعادوه أو يكيدوا له ويحاربوا أهله، فإن بدأوا بالعداوة فقد حرموا هذه الحقوق العظيمة وعرّضوا أنفسهم للمعاملة بالمثل. ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

كما حدَّدت هذه الوثيقة علاقة اليهود بالمسلمين محاربين كانوا أم مسالمين، وأعطت لهم حرية المعتقد وكفلت لهم حرّية العبادة، ومما ورد فيها:

- لليهود دينهم وللمسلمين دينهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يهلك إلا نفسه وأهل بيته. إشارة إلى تحمّل المسؤولية كاملة إذا تخلّى اليهود عن عهودهم ولم يوفوا بمواثيقهم، وهذا وارد منهم ومشهود به عبر الزمان مع أنبيائهم، إذن فلا غرابة أن يخونوا مواثيقهم مع المسلمين. لذا جاء هذا البند يضعهم في الصورة الصحيحة ويحرِّضهم على الوفاء بالعهود.

كما جاء في الوثيقة أن اليهود والمسلمين متحالفون متضامنون على كل من يحارب أهل هذه الصحيفة، وأي حدث يؤدي إلى الاختلاف والشجار فإن مردّه إلى الله ﷻ وإلى محمَّد ﷺ إشارة إلى أنه يحاكم بحكم الله ﷻ.

كما أعطت الوثيقة للمسلمين واليهود على السواء حرية الحركة والسفر، إذ جاء فيها، من خرج من المدينة مسلماً كان أم يهودياً فهو آمن. ومن قعد فهو آمن إلا من ظلم وأثم. وغيرها من

البنود التي تنظِّم المجتمع المدنـــي الجديد على اختلاف طوائفه وديانـاته.

مشروعية القتال:

ظل رســـول الله ﷺ يدعو الناس إلى الإســـلام، وينشـــر دين الله ﷻ بثبات وإخـــلاص، مقتصراً على الترغيـــب في فضل هذا الدِّين والتبشـــير بالجنّة والتحذير من الإدبار عنـــه، والإنذار من عذاب الله ﷻ، فكانت الآيـــات تتنزل عليه لتثبت فؤاده وتشـــدّ أزره، ليزداد قوة وثباتاً وإصراراً على هـــذا الدين العظيم، وصبراً على ما يناله من أصناف الإذايات وأنـــواع المضايقات، من ذلك قوله تعالـــى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. فكان عليه السلام ثابـــت العزيمة طويل الصبر، يقدم العفو على العقوبة والصفـــح على الرد بالمثل، وهو يعلم أن هذه القلوب القاســـية تحتاج إلى عمـــل كبير وترويض واســـع لتلين وتنفض عنها غبار الجهل وآثام الجاهلية.

لما اشـــتد الظلم على المســـلمين وأصبحوا مستضعفين في الأرض مشـــردين في أطرافها بين مهاجر إلى الحبشة، أو فار إلى المدينة دون أهله وماله، أو مفتون محبوس في أيدي المشـــركين بمكة. عندها أذن الله ﷻ لرســـوله في القتال والانتصار لدين الله تعالى ممّن ظلم المسلمين وبغى عليهم. فنزل قوله تعالى:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]. فجاءت هذه الآية إعلاناً لمن تحدّثهم نفوسهم بالاعتداء على الإسلام وأهله، أنهم سيُحَارَبون وسيُغْلَبون وأذن للمسلمين بالحق المشروط لكل مظلوم الدفاع عن نفسه والذود عن دينه.

وإثر نزول آية القتال بدأت آيات أُخرى تتنزل منها: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ [البقرة: ١٩٠]. عندئذ استعد المسلمون للقتال وكانوا ينتظرونه بشوقٍ شديدٍ، وعزموا على مقاتلة المشركين، وأصبحت الحرب شاهرة سلاحها، مفتوحة على كفار قريش الذين أَذاقوا المسلمين الويلات في مكَّة واضطروهم للخروج منها بحثاً عن مَأْمن على أنفسهم وموضع لدينهم، فكانت الهجرة إلى المدينة المنورة التي توّجت بوصول الرسول الكريم إليها مظفراً.

وفي المدينة المنورة بدأت تنمو جماعة المسلمين وتقوى شوكتهم ويشتد عودهم، غير أن اليهود لم يهنأ لهم بال بهذا الضيف الجديد فبدأوا يتحرَّكون ليعبِّروا عن طبعهم المعهود وكَيدهم المستمر، فبدأوا يُثيرون النعرات الجاهلية بين الأنصار من الأوس والخزرج، سعياً منهم لإضعاف المسلمين وتفريقهم تمهيداً للقضاء عليهم، فنزل الأمر بقتال كل الوثنيين الذين تضافروا مع اليهود في الكيد والعداء وصدّ أهل الكتاب الذين كانوا رأس الحربة وسبب كل بلاء.

لما تأكّدت خيانة اليهود وظهرت مكائدهم، نزل قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]. وبعد نزول هذه الآية تحدَّدت مواقف المسلمين من خصومهم وهي كما يلي:

- اعتبار مشركي قريش محاربين وقتالهم حق للمسلمين، لأن قريشاً بدأت بالعدوان فشرّدت المسلمين ونهبت أموالهم.
- وجوب مقاتلة اليهود إذا بدأوا بالخيانة.
- الاستعداد لردع القبائل العربية التي تحدّثها نفسها بالإغارة على المدينة أو النيل منها.

وبدأ الرسول القائد يدرِّب رجاله على فنون القتال ويحرّضهم على الجهاد في سبيل الله.

مغازي رسول الله ﷺ :

كان عدد مغازي رسول الله ﷺ التي غزا بنفسه سبعاً وعشرين. وكانت سراياه التي بعث فيها سبعاً وأربعين سرية، وكان ما قاتل فيه من المغازي تسع غزوات: بدر، وأُحُد، والمريسيع، والخندق، وقريظة، وخيبر، وفتح مكّة، وحنين، والطائف، وفي بعض الروايات أنه قاتل في بني النضير ولكن الله جعلها له نَفْلاً خاصة، وقاتل في غزاة وادي القرى مُنْصَرَفه من خيبر وقاتل في الغابة.

أول مغازي الرسول ﷺ :

غزوة ودَّان:

قرية جامعة من عمل الفرع، بينها وبين رابغ مما يلي المدينة ٢٩ ميلاً. وهي أول مغازي رسول الله ﷺ، خرج عليه السلام في صفر غازياً على رأس اثني عشر شهراً من مقدمة المدينة لاثنتي عشرة ليلة مَضت من شهر صفر، حتى بلغ ودَّان وكان يريد قريشاً وبني ضمرة، وهي غزوة الأبواء، ثم رجع إلى المدينة وكان استعمل عليها سعد بن عبادة فيما ذكره ابن هشام، فوادعته فيها بنو ضمرة، وكان الذي وادعه منهم مَخشِيُّ بن عمرو الضَّمْري، وكان سيدهم في زمانه ذلك، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً.

غزوة بدر:

عَلِم رسول الله ﷺ أن قافلة لأبي سفيان قادمة من الشام، فيها أموال أغنياء قريش وكبرائهم، يحرسها ثلاثون رجلاً. فأراد عليه السلام أن يؤدِّب قريشاً ويَسترجع بعض ما سُلب من المهاجرين بعد خروجهم من مكَّة فراراً بدينهم. فقال لأصحابه: «هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها» أي لعل الله أن يمكّنكم منها. فخرج بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، ولم يخرج البعض ظنًّا منهم أن لا تقع حرب بين رسول الله والمشركين، وقد كان عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً.

لما علم أبو سفيان بخروج المسلمين لتعقب القافلة وخشي

أن يسقط في أيديهم غنيمة، حول وجهته نحو طريق صعبة للإفلات من الأسر، وأرسل إلى قريش يطلب النجدة، فجهز ضمضم بن عمرو الغفاري براحلة سريعة وجعل له مكافأة وحرَّضه على اللحاق بقريش لإبلاغها الخبر، وخرج ضمضم يقطع الصحراء لا يتأخر عن السير ليل نهار، حتى إذا قدم مكَّة شق قميصه وجدع أنفه وحوَّل رحله وصاح في الناس مستغيثاً، يا معشر قريش اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد تعرض لها محمَّد وأصحابه لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث.

سارع أبو جهل لجمع الناس وحرّضهم على الخروج للدفاع عن أموالهم، وقد رأى الفرصة سانحة للانتقام من محمَّد وأصحابه، فخرج القوم في خيلهم وأسلحتهم وساروا يتقدمهم إبليس ويزين لهم الحرب، ويوغر صدورهم حقداً على الإسلام وأهله ويوهمهم بالنصر حاملين معهم الخمر والراقصات استكمالاً لاستعدادهم للحرب قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

فكان كفار قريش متحمسين للحرب فهم بين خارج بنفسه أو مرسلاً مكانه رجلاً بحيث لم يتخلف من أشرافها رجل واحد.

جَدّ المسلمون في سيرهم يتعقّبون قافلة قريش وقد بذل أبو سفيان جهداً كبيراً للإفلات بالقافلة من قبضة المسلمين وكاد

أن يقع في الأسر، لولا أن الحظ أسعفه فاستطاع أن يفلت بقافلته بعد أن سلك الطرق الوعرة نحو الساحل تاركاً بدراً إلى يساره. ولما علم المسلمون أن أبا سفيان استطاع النجاة وأن قريشاً خرجت في خيلائها، وقد جمعت الرجال والسلاح والأموال تريد ملاقاة المسلمين ومحاربتهم، استعدوا للمواجهة وقد وعدهم الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام إحدى الطائفتين: العير أم النفير وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ..﴾ الآية [الأنفال: ٧].

لم يرَ رسول الله ﷺ بُداً في المضي قدماً إلى الأمام. ولعل الله تعالى أراد لهذه الفئة المُؤْمِنة النصر والتمكين على أعدائها، فاستشار أصحابه وقلّب معهم الأمور من جوانبها. فرأى فيهم الصدق والإخلاص والشوق للجهاد والتصميم على مناجزة القوم والنيل منهم، فهذه فرصتهم التي طالما انتظروها، فلعل الله يمكنهم من القافلة ولو حصل ذلك لأصابوا أهل مكَّة بضربة موجعة قاصمة في هيبتها وتجارتها ولحققوا تعويض ما نُهب من أموالهم بمكّة.

استشار الرسول ﷺ أصحابه فتكلّم أبو بكر وقال خيراً وكذلك عمر وتكلَم المقداد بن عمرو وحرّض على القتال وجدّد الولاء لرسول الله ﷺ والبيعة على الموت في سبيل الله. فاستبشر عليه السلام، ثم التفت إلى الأنصار يريد رأيهم في القتال وقد سبق أن عاهدوه على النصرة ما دام في المدينة فقال: (أشيروا

عليَّ أيها الناس). فعلم سعد بن معاذ زعيم الأنصار أنه يريدهم. أي يطلب منهم الإدلاء برأيهم وماذا يقولون في الدفاع عن رسول الله وأصحابه خارج المدينة.

قال سعد بن معاذ: «آمنا بك يا رسول الله وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غداً إنا لصُبّر في الحرب، صُدّق عند اللقاء، لعل الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله». فسُرّ عليه السلام بقول سعد، وقرّر المضي إلى القتال وقال لأصحابه: **(سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم)**.

حط المسلمون رحالهم على ماء ببدر، وحازوا السّبق في الاستيلاء على الماء ومنعوا قريشاً منه بناء على خطّة محكمة أشار بها الحباب بن المنذر رضي الله تعالى عنه. كان عدد المسلمين ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، وكان عدد الخيل والجمال معهم قليل. بدأ رسول الله ﷺ ينظم جيشه ويسوي الصفوف، ويشحذ الهمم ويحرّض على القتال ويرغّب فيه، ويَعِد بإحدى الحسنيين، النصر أو الجنّة قائلاً: **(والذي نفسي بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة)**.

كما أشار سعد بن معاذ أن يبني عريش لرسول الله ﷺ وراء الصفوف حماية له من السهام، ومقراً له ليختلي فيه إلى ربه يدعوه ويناجيه، وأثناء ذلك بدأت طلائع الشرك تظهر في الأفق شاهرة سلاحها للحرب بقيادة أبي جهل الذي استحوذ عليه الشيطان ودفعه إلى القتال، وقد حاولت جيوش المشركين الاستيلاء على الماء، غير أنها فشلت تحت ضرب جند الله وصمودهم فنزلوا بالعدوة القصوى من الوادي مصممين على محاربة الله ودينه، آخذين العهود على أنفسهم أن يطفئوا نور الله ويطمسوا معالمه، فرد الله كيدهم في نحورهم وأبطل كيدهم وأفشل خططهم: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

بدأ القتال بين المعسكرين، معسكر الإيمان تحت راية التوحيد، ومعسكر الشرك بزعامة إبليس وأبي جهل، بدأ القتال بالمنازلة من الجهتين فكانت الغلبة للمسلمين، انطلق ثلاثة من فرسان قريش عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة، فانبرى إليهم ثلاثة من فرسان المسلمين: عوف ومعوذ ابنا الحارث وعبدالله بن رواحة، فأبوا لقاءهم داعين محمَّداً أن يخرج إليهم غيرهم فقال عليه السلام: **(قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة قم يا علي)** فقام الفرسان الثلاثة ليضرب المثل في الشجاعة والإقدام وليحقِّقوا للمسلمين أول نصر في ساحة المعركة.

لما كانت بداية المعركة نكبة على المشركين استشاطوا غيظاً وأقبلوا بجموعهم على المسلمين، فبادرهم جند الإسلام بالنبال

يرمونهم بها ويحصدونهم حصداً، ولما التقى الجمعان والتحم الجيشان سُلّت السيوف وأُعملت في رقاب المشركين، وفي المقابل كان أبو جهل يتحرك في جيشه يحركه إبليس ويذكي وطيس المعركة ويذكي نارها ويزيد في أوارِهَا. أما فريق المسلمين فيتولى قيادته رسول الله ﷺ تحفهم الملائكة الكرام، يثبت الله تعالى بهم الأقدام ويشد أزرهم وينصرهم على الكافرين ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

في ميدان المعركة قُتِل زعماء قريش ودبّت الهزيمة في صفوف المشركين، وحاول أبو جهل أن يوقف زحف المسلمين وأن يقلِّل من خسائر جنده، فصاح في الناس يدعوهم إلى القتال ولكنه فشل في مسعاه وخاب أمله، فاجتمع جُند الله على عدو الله وتسارع إليه شابان من المقاتلين كلٌّ يسعى إلى نيل شرف قتل أبي جهل فلم يَسْلم منهما وما تركاه حتى صُرع على الأرض وانضم إلى المقتولين من جنده. في هذه المعركة قتل صناديد قريش كل منهم صرع في الموضع الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ، ولما توقفت المعركة أقبل رسول الله حتى وقف على قتلى المشركين فقال: **(بئس العشيرة كنتم، كذبتموني وصدقني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس وأخرجتموني وآواني الناس)**.

المدينة تتلقى بشائر النصر:

لما انتهت المعركة وقد كسب فيها المسلمون مكاسب جمّة من نصر وأسرى وغنائم، رأى رسول الله ﷺ أن يزف البشرى لأهل المدينة الذين جلسوا يترقبون ما تأتي به الأيام من أخبار في أول مواجهة عسكرية مع الأعداء، خاصة بعد إرجاف اليهود والمنافقين في المدينة أن محمَّد قد قُتل. أرسل الرسول ﷺ عبدالله بن رواحة بشير إلى أهل العالية وزيد بن الحارثة إلى أهل السافلة، ولما بلغ الخبر أهل المدينة عمّت الفرحة وخرج الناس يستقبلون القائد المظفر وجنده الميامين خارج المدينة.

الحكم في الأَسرى:

لما وصل الرسول ﷺ المدينة استشار أصحابه في أمر الأَسرى، فأشار أبو بكر ﷺ بالفداء ليتقوّى المسلمون بتلك الأموال، وأشار عمر ﷺ بالقتل لأن الإبقاء على الأسرى وتسليمهم إلى أهلهم تقوية لمعسكر الشرك. فأخذ الرسول بالرأي الأول وافتدى المشركون أسراهم بالمال، ومن ليس له مال افتدى نفسه بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة، وجاء الوحي ليصحح الموقف ونزل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ.. ﴾ الآية [الأنفال: ٦٧]. دعماً لرأي عمر إذ لا يمكن أن يكون للمسلمين أسرى حتى يبسطوا سلطانهم

على الأرض. كما نزلت آيات يمن الله على عباده بهذا النصر الثمين ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

تقسيم الغنائم:

نزلت آية كريمة تبيّن لرسول الله ﷺ طريقة توزيع الغنائم بطريقة عادلة ترضي المؤمنين وهي قوله ﷻ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]. فأقبل رسول الله ﷺ حتى إذا خرج من مضيق الصفراء نزل على كثيب فقسم هناك النفل الذي أفاء الله به على المسلمين بالسوية، فقبلها المجاهدون بنفس رضية، ثم أوصى عليه السلام بالأسرى خيراً وقال: **(استوصوا بالأسرى خيراً)** فسارع الصحابة رضوان الله عليهم إلى العمل بوصية قائدهم، فكانوا يحسنون لأسراهم ويخصونهم بأحسن الطعام حتى قضى فيهم الرسول بالفداء.

غزوة أُحُد:

عزمت قريش على الثأر لنفسها من المسلمين بعد الهزيمة التي لحقت بها في بدر، وصُرع فيها زعماؤها، فجهزت نفسها، وجمعت حولها القبائل، وأنفقت أموالاً طائلة لتجهيز جندها بالخيل والسلاح، حتى اجتمع لديها ثلاثة آلاف مقاتل من غير

الأحابيش وهـــم من حلفاء قريش، وبعـــد التجهيز الكامل، خرج المشركون يتقدمهم أبو سفيان مصطحباً النساء والمغنيات يضربن على الدفوف وينشدن بهجاء المسلمين وتحريض المشركين على القتال، وســاروا متجهين صوب المدينة حتى نزلوا بمكان قريب منها يسمى أُحُد ليكون بعد ذلك أرضاً للمعركة.

علم المســلمون بخروج المشــركين يريدون حربهم فأعدُّوا للأمر عُدّته وتحفّزوا نشــطين للدفاع عن مدينتهم وصد أعدائهم عنها. وجمع الرسول ﷺ صحابته الكرام يستشيرهم، فأشار الكبار على البقاء في المدينة حتى إذا دخــل الأعداء أزقتها حاصروهم فيهــا ورموهم بالســهام، وقاوموهــم بالســيوف، وكان من بين أصحاب هذا الرأي عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين. وأشار الشباب وخاصة أُولئك الذين فاتهم القتال في بدر بالخروج إلى المشركين ومقاتلتهم خارج المدينة، وتحمسوا لرأيهم يدفعهم إلى ذلك حب الجهاد والإخلاص لله تعالى.

نزل رسول الله ﷺ عند رأي الشباب ودخل بيته ولبس لامته (درعه) وألقــى الترس في ظهره وأخذ رمحــه بيده ثم خرج إلى أصحابه يدعوهم إلى القتال، ويرغب فيه ويعِدُ بالمثوبة. خشــي الشباب أنهم قد أكرهوا رســول الله على الخروج بسبب الإلحاح الشديد على ذلك، ولعلهم يكونون بذلك قد تعدّوا حدودهم في الاستشارة فاعتذروا لرســول الله وقالوا: يا رسول الله استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإن شــئت فاقعد صلى الله عليك، فقال عليه

الصَّلاة والسَّـلام: **(ما ينبغي لنبـي لبس لامتـه أن يضعها حتى يقاتل)**.

خرج رسـول الله ﷺ في ألف مـن المقاتلين وفـي منتصف الطريق تخاذل عنه عبد الله بـن أُبيّ، رأس النفاق بثُلث الجيش من ضعاف الإيمـان، محتجًّا في ظاهـر الأمر على مطاوعة الرسـول للشـباب قائلاً: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هٰهنا أيها النـاس، وفي الحقيقة فإن ابـن أُبيّ يريد خذلان المسـلمين وإضعافهم، فأصبح الجند حينئذ سـبعمائة رجل مقابل ثلاثة آلاف من المشركين. حاول عبد الله بن حرام، والد جابر بن عبد الله تذكير المتخاذلين مـن أصحاب ابن أُبي بواجبهـم فتبعهم وهو يوبخهم ويحضّهم على العودة إلى المعسـكر، ولما لم يستجيبوا لطلبه دعا عليهم بقوله: **(أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيّه)**.

مضى المسـلمون في طريقهم حتى نزلوا بسفح جبل أُحُد وقد أعطـوا ظهورهم إلـى الجبل وقابلـوا جيش المشـركين. قبل بدء المعركة نظم رسول الله ﷺ جيشه، وانتخب خمسين رجلاً من الرماة ليأخذوا مواقعهم على الجبـل بقيادة عبد الله بن جبير، وأمرهم عليه السلام بأن يرموا القـوم بالنبال وألا يغـادروا مواقعهم حتـى يأذن لهم، واختار عليه السلام ثـلاث رايات فأعطـى راية الخزرج إلـى الحباب بن المنذر، وراية الأوس إلى أسـيد بن حضيـر، وراية المهاجرين إلى مصعب بن عمير، كما اختار عليه السلام شـعاراً للمعركة **(أمت، أمت)** أي أقتل، أقتل ليرفع من معنويات المسلمين في القتال.

بدأت المعركة بتراشق الجانبين بالنبال، ثم التحم الفريقان، وأعمل جند الله سيوفهم في المشركين وشردوهم في سفوح الجبال وبقي القليل. ولما رأى الرماة تقهقر المشركين وتحقق النصر عليهم قال بعضهم لبعض: «الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم فماذا تنتظرون؟» فنسي الرماة أمر الرسول لهم بعدم المغادرة حتى تصدر إليهم الأوامر، فترك أغلبهم مواقعهم من الجبل، ولم يبق إلا قائدهم عبدالله بن جبير وتسعة من أصحابه ملتزمين بالأوامر العسكرية الصارمة. وبنزول الرماة انكشف ظهر المسلمين فانعطف عليهم خالد بن الوليد وطوَّقهم من خلفهم لينقلب الوضع تماماً ويصبح النصر هزيمة.

وحمي وطيس المعركة مرة أخرى، وثبت الرسول في المعركة ودعا أصحابه للقتال ونادى بأعلى صوته: **(هلم إليَّ أنا رسول الله)** فتفطن إليه المشركون وصوّبوا إليه ضرباتهم وطمعوا في الوصول إليه. إلا أنه عليه السلام كان القائد الشجاع الذي لا يعرف للتراجع سبيلاً، فثبت وثبت معه أصحابه وكانوا قلة فأجلوا الأعداء عنه وشتتوا شملهم. قُتل الرماة العشرة ونالوا الشهادة وهم يدافعون عن الإسلام وأهله، وأصيب الرسول الكريم في ركبتيه بجروح، ووقع في حفرة سال إثرها دمه الزكي من شجّة في جبهته، فقام عليه السلام وهو يقول: **(كيف يفلح قوم شجوا نبيّهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله)**.

وقعت هذه الأحداث العصيبة في لحظات خاطفة، لكن

الصحابة الكرام التفُّوا حول نبيّهم وأقاموا حوله سياجاً من أجسادهم وسلاحهم لحمايته من ضربات العدو وفيهم: أبو دجانة، مصعب بن عمير، علي بن أبي طالب، سهل بن حنيف، مالك بن سنان «والد أبي سعد الخدري»، قتادة بن النعمان، عمر بن الخطاب، حاطب بن أبي بلتعة، أبو طلحة وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية. وبعد قتال دام، استشهد مصعب بن عمير وتلاه حمزة قتله وحشي عبد هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، وقُتل عدد من المقاتلين في هذه المعركة، فكان المصاب عظيماً والخطب جسيماً.

لما انكشف المشركون ورضوا بما نالوه من المسلمين، وقد ظنوا أنهم قتلوا رسول الله وأصحابه أبا بكر وعمر عندها أشرف أبو سفيان على الجبل وصرخ بأعلى صوته: إن الحرب سجال يوم بيوم بدر، أعلَ هبل. فقال رسول الله ﷺ: **(قم يا عمر فأجبه وقل: الله أعلى وأجلّ)**. فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فرد عمر: الله مولانا ولا مولى لكم، قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، فرد عمر: لا سواء، قتلانا في الجنّة وقتلاكم في النار. وتواعد الطرفان على اللقاء قال أبو سفيان: إن موعدكم بدر العام القابل، فقال عليه السلام لرجل من أصحابه: **(قل نعم هو بيننا وبينك موعد)**.

أرسل رسول الله ﷺ علياً ليراقب العدو وقال له: **(أخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكَّة، وإن ركبوا الخيل وساقوا**

الإبل فإنهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم فيها). ولما عاد المسلمون إلى المدينة نزلت آيات تواسي المؤمنين وتضمد جراحهم ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

غزوة بني النضير (ربيع الأول سنة ٤هـ):

كان يهود بني النضير حلفاء الخزرج يجاورونهم بالمدينة، ولما هاجر عليه السلام عقد معهم عهداً يأمن به كل من الطرفين الآخر، لكن طبيعة اليهود الغادرة دفعتهم إلى عدم الوفاء بذلك العهد حسداً وعدواناً وظلماً. فقد خرج إليهم رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه يطلب منهم الالتزام بما في المعاهدة من تعاون على دفع الدية، وكان عمرو بن أمية الضمري قد قتل رجلين من كلاب. فتظاهر بنو النضير بالموافقة وطلبوا منه الجلوس حتى يقضوا حاجته، فجلس عليه السلام على جنب جدار من بيوتهم ينتظر الوفاء بالوعد ومعه أصحابه.

اختلى اليهود ببعضهم وتآمروا على رسول الله وأعدوا خطة للغدر به وقتله، وذلك بأن يلقي أحدهم صخرة على رأس محمَّد، فتكفّل أحد أشقيائهم بذلك، رغم تحذير بعضهم بأن ذلك نقض للعهد وأن الله سيطلعه على مؤامراتهم، لكنهم عزموا على التنفيذ.

وقبل ارتكاب الجريمة أطلع الله رسوله على كيدهم، فنهض مسرعاً ولحقه أصحابه فأخبرهم بما همَّ به اليهود من غدر. واختار رسول الله ﷺ محمَّد بن مسلمة وأرسله إلى بني النضير يُعلمهم بقرار الإجلاء من المدينة ويُمهلهم عشراً فمن وُجد بعد ذلك ضُربت عنقه.

بدأ اليهود يتهيأون للرحيل لكن المنافقين اتصلوا بهم يعدونهم بالمناصرة ويحرّضونهم على العصيان، وأنهم سيقاتلون إلى جنبهم وسيكونون درعاً حصيناً لهم، فانخدع اليهود بوعد المنافقين وقرّروا المقاومة، وأرسل زعيمهم حيي بن أخطب إلى الرسول يخبره أنهم لن يخرجوا من ديارهم فليفعل ما بدا له. وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

لما بلغ رسول الله عليه السلام جواب اليهود كبّر فتبعه أصحابه لمقاتلة اليهود، فتوجه إليهم وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب وفرض عليهم الحصار، فلجأ بنو النضير إلى حصونهم، وأقاموا عليها يرمون بالأحجار والنبال، وظنوا أن الحصون تمنعهم من قدر الله، فاستمر الحصار ست ليال، ثم أمر رسول الله ﷺ أن تقطع نخيلهم وتحرق حتى يستسلموا، فقذف الله في قلوبهم الرعب فتخلى عنهم المنافقون وخانهم حلفاؤهم من غطفان، واعتزلهم بنو قريظة فلم يصلهم عون من أحد.

استسلم بنو النضير للهزيمة وألقوا السلاح وأرسلوا إلى النبي ﷺ يطلبون الكف عن دمائهم ويجيبونه إلى الجلاء من المدينة، فقرر عليه السلام أن يخرجوا بأنفسهم وذراريهم وأباح لهم أن يأخذوا ما تحمله الإبل من أموالهم ولم يسمح لهم بأخذ الأسلحة. فخرب بنو النضير بيوتهم بأيديهم ورحلوا منهزمين، فتوجه كبارهم إلى خيبر. وذهبت طائفة منهم إلى أذرعات بالشام، وأسلم منهم رجلان، وقبض رسول الله ﷺ سلاح بني النضير واستولى على أرضهم وأموالهم ليضعها حيث يشاء، فأعطى المهاجرين وبعض فقراء الأنصار، وأنفق منها على أهله، وجعل ما بقي عدة في سبيل الله وقد أنزل الله في هذه الغزوة سورة الحشر كاملة.

غزوة بني المصطلق (شعبان، السنة الخامسة للهجرة):

كان الحارث بن ضرار قائد بني المصطلق، جمع قومه من خزاعة وهم حلفاء لبني مدلج ليواجه رسول الله، وطمع في غزو المدينة وظن أن المسلمين بعد أُحُد أصبحوا ضعافاً. وكان هؤلاء الأحباش قد شاركوا في أُحُد مع المشركين، واستطاع الحارث أن يقنع جموعاً من العرب فانضموا إلى قواته وجهزهم بالخيل والسلاح. لما علم رسول الله ﷺ بتحريك الأعداء، استخلف أبا ذر على المدينة وأرسل بريدة بن خصيب الأسلمي يستطلع أخبارهم خدمة للمسلمين.

استطاع بريدة أن يندس بين المشركين متظاهراً بمشاركتهم

في حرب محمَّد فوجدهم مغرورين مزهوين بقوتهم، فعاد إلى الرسول ﷺ وأطلعه على أخبارهم وحشدهم وعدتهم، فندب الرسول الناس للخروج. وانطلق يسير ليلاً حتى لا ينكشف، وأعطى لواء المهاجرين لأبي بكر، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة، وأمسكت دورية بعين (جاسوس) لبني المصطلق فدعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام فأبى فضرب عنقه لأنه جاسوس محارب. وهذا الحدث أوقع الرعب في قلوب المشركين.

لما بلغ الخبر الحارث خاف وانفضّ كثير ممن معه، ووصل الرسول القائد إلى المريسيع ودعا القوم إلى الإسلام فرفضوا، فحمل عليهم المسلمون فلم يفلت منهم أحد، وكان شعار الغزوة: «يا منصور أمت أمت»، وأسفرت الغزوة عن استشهاد صحابي واحد، هو هشام بن صبابة قتل خطأ، ظن قاتله الأنصاري أنه من الأعداء، فكان له دية مسلمة إلى أهله، وقد جاء أخوه مقيس بن صبابة من مكَّة مظهراً الإسلام، وطلب بالدية وبعد أن استلمها تمكّن من قتل قاتل أخيه ثم ارتد وعاد إلى مكَّة، فحكم عليه الرسول ﷺ بالقتل ولو تعلّق بأستار الكعبة وقد قتل بعد فتح مكَّة.

لم تكن نتائج غزوة بني المصطلق من الناحية العسكرية مكلفة، فقد قتل من جانب بني المصطلق عشرة وأسر الباقي، وغنم المسلمون ألفي بعير وخمسة آلاف شاة وسبيت النساء، وقد قسم الرسول ﷺ أربعة أخماس الغنيمة على المقاتلين. للفارس سهمان وللراجل سهم. غير أن المنافقين لم يرضهم

انتصار المسلمين، فسعوا جادين إلى افتعال أحداث تربك المسلمين وتحيي فيهم العصبية. كما أساؤوا إلى مقام الرسول بإشاعة الإفك فنزل فيهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

زواج الرسول من جويرية:

كان بنو المصطلق من أعز العرب داراً وأشرفهم نسباً، فلما انتهت المعركة بأسر نسائهم كان لذلك وقع شديد على نفوسهم، فسعى رسول الله ﷺ إلى تضميد جراحهم، وكانت جويرية بنت الحارث سيد بني المصطلق من السبايا فوقعت في سهم قيس بن شماس فكاتبته على نفسها وأتت النبي وقالت: أنا جويرية وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت في السهم لثابت، فكاتبته على نفسي، وجئت أستعينك على مكاتبتي فقال لها: **(هل لك في خير من ذلك؟)** قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: **(اقضي عنك كتابتك وأتزوجك)** قالت: نعم. وفشا خبره بين الجند فقال: **(أصهار رسول الله يسترقون فأطلقوا ما في أيديهم)**، فأعتق بالزواج مائة بيت من بني المصطلق، فقالت عائشة: «ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها».

نجت جويرية من السبي وظفرت برسول الله زوجاً، وأعتقت قومها من الأسر، وسلمت أموالهم من الغنيمة ونساؤهم من السبي، وأقبل الحارث وقومه مسلمين طواعية وصاروا أعواناً

للمسلمين بعد أن كانوا أعداءاً لهم. وبعد إسلام بني المصطلق أرسل الرسول ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي معيط ليجمع الزكاة من أموالهم، فلما سمعوا بقدومه ركبوا إليه لاستقباله، فخاف منهم وعاد ليُعلم الرسول عليه السلام أنهم إنما خرجوا ليقتلوه ومنعوه الزكاة، فبعث الرسول خالد بن الوليد وأوصاه أن يتريث قبل مهاجمتهم، فوجدهم خالد ثابتين على الإسلام مستعدين لأداء الزكاة. فنزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

فتنة العصبية:

أطلق المنافقون في غزوة بني المصطلق سهاماً فتاكة. أراد ابن أُبي أن يثير النعرات القديمة فاستغل خلافاً بين غلام من المهاجرين وآخر من الأنصار حول ماء بالمريسيع فأذكى الفتنة حتى صاح جهجاه الغفاري أجير عمر بن الخطاب: «يا معشر المهاجرين» وصاح سنان الجهني حليف الأنصار: «يا معشر الأنصار» وكثر الازدحام واللغط فسمع الرسول ﷺ بالخصومة وسارع إلى حسم الأمر وقال: **(أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنها منتنة)** فأبى عبدالله إلا أن يثير الفتنة مرة أخرى فقال لرهط من قومه: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما نحن وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

لما بلغ رسول الله خبر الفتنة التي أثارها ابن أُبي ودعا عمر إلى قتل رأس النفاق قال عليه السلام: **(كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمَّداً يقتل أصحابه، ولكن آذن بالرحيل»** فمشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم حتى أمسوا وليلتهم حتى أصبحوا، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، فنزل بهم، فما مست جنوبهم الأرض حتى ناموا، وبذلك انشغلوا عن مقولة المنافق. وبذلك استطاع الرسول القائد أن يعالج الأمر بحكمة، وقد سأله أسيد بن حضير عن رحيله في ساعة منكرة، فقال عليه السلام: **(أوما بلغك ما قاله صاحبكم؟)** زعم أنه إذا رجع المدينة ليخرج الأعز منها الأذل» فقال أسيد: يا رسول الله أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك استلبته ملكاً، ثم قال أسيد: فأنت تخرجه يا رسول الله إن شئت هو والله الذليل وأنت العزيز.

حديث الإفك:

لم يجد رأس المنافقين فرصة لنشر الفتنة إلا ولجها. فقد تأخرت أم المؤمنين عائشة عن الركب تبحث عن عقد لها سقط منها بعد قضاء الحاجة، ففاتتها القافلة وجاء بها مكرمة صفوان بن المعطل فتحرك ابن أُبي بحديث الإفك لإيذاء رسول الله وصاحبه أبي بكر. فتكلم الناس بذلك وبلغ الأمر رسول الله عليه السلام وأصابه غم شديد كما أصيبت عائشة بانهيار نفسي، وبقي عليه السلام يقلب

الأمر بين ثقته الغالية في عائشة وحديث الناس الذي يشيعونه، حتى نزل الوحي بالقول الفصل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

غزوة الأحزاب (السنة الخامسة للهجرة):

بعد إجلاء بني النضير من المدينة لم يهدأ لرؤسائهم بال حتى يأخذوا بثأرهم من المسلمين ويستردوا أملاكهم، فانطلق حيي بن أخطب في جمع من كبار قومه إلى مكَّة، والتقوا بزعماء قريش وحرضوهم على محاربة محمَّد وأصحابه، وشهدوا زوراً أن ما عليه كفار قريش من وثنية خير من رسالة محمَّد السماوية ووعدوا بالتعاون معهم على حرب النبي، فوجدوا من قريش قبولاً وموافقة، وبعدها توجه وفد اليهود إلى غطفان ودعوهم إلى مقاتلة رسول الله، وأخبروهم بموافقة قريش على ذلك فوجدوا منهم أيضاً قبولاً واستعداداً لمقاتلة المسلمين.

تتابع تجمع الأحزاب لحرب المسلمين، وبدأوا يتجهزون ويتوافدون على المدينة المنورة، فمن مكَّة خرج أبو سفيان على رأس أربعة آلاف من الجند ومعهم ثلاثمائة فرس وألف بعير. والتقى بهم حلفاؤهم من بني سليم، وخرجت قبائل غطفان وبنو فزارة وبنو أشجع، وبنو مرة، وبنو أسد، وقد نجح اليهود في تأليب الأحزاب على المسلمين، إذ تجمع حول المدينة من

الكفـــار عشـــرة آلاف مقاتـــل بقيـــادة أبـــي ســـفيان. لمـــا علم رســـول الله ﷺ بالخبر ندب الناس للجهـــاد ووعدهم بالنصر إن اتقوا وصبـــروا على هذه الأحـــزاب الكافرة التـــي بدأت تطوق المدينة المنورة.

لما علمت خزاعة بتحرك الجيوش صوب المدينة أرســـلت من يخبر الرســـول بذلك فســـارع عليه الصَّلاة والسَّـــلام بعقد مجلس للتشـــاور مع أصحابه حـــول كيفية الدفاع عـــن المدينة والتصدي لهـــذه الأحزاب الزاحفـــة. فاقترح الصحابي ســـلمان الفارســـي أن يحفر المســـلمون خندقاً حول المدينة من الجهة المكشـــوفة والتي يتوقـــع أن يأتي منهـــا العدو، وهـــي ما بين الحرتين فنال اقتراحه إعجاب المســـلمين وموافقتهم عليه، لأن العرب لا تعرف مثل هذه الخطة الحربية وبدأ الرسول ﷺ بتنفيذ الخطة.

كلف عليه السلام كل عشرة من الصحابة بحفر أربعين ذراعاً، وبادر المسلمون بالحفر بكل همّة ونشاط، والرسول يحثّهم ويشاركهم في نقل التراب مـــن الخندق. وتواصل الحفر طـــوال اليوم حتى تكامل قبل وصول الأحزاب إلى أســـوار المدينة، وقد شارك في حفر الخندق ألف مســـلم، واشـــتد البلاء على المســـلمين، وقد تجمع عليهم الأعداء وأحاطوا بهم، ثم إن يهود بني قريظة نقضوا العهد وأرجف المنافقون وخدعوا بالمسلمين، حتى أن النبي ﷺ أراد أن يصالح غطفان على ثلث ثمار المدينة على أن تنســـحب

لكن الأنصار رفضوا وقالوا: لا نعطيهم إلا السيف فاستبشر الرسول بجوابهم وبدأ بتنظيم جيشه.

كانت إقامة جند الله في الناحية الشرقية وقد أسندوا ظهرهم إلى جبل سلع، وأعطى رسول الله ﷺ لواء المهاجرين لزيد بن حارثة، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة، وكان عدد جنوده ثلاثة آلاف.

أما جيش الأحزاب فقد تمركزت قريش بمجمع الأسبال، ونزلت غطفان جهة أُحُد، وفوجئ الكفار بالخندق، وبدأوا يترامون بالنبال وتواصل الحصار، فكانت قريش تبحث عن ثغرة تدخل منها إلى المدينة، وحاول الكفار اقتحام الخندق، ومنهم عكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن عبد ودّ، فتصدى لهم المسلمون، وبرز علي بن أبي طالب لعمرو فارس قريش فقتله وهرب ومن معه، وهوى بعضهم في الخندق فاندقت عنقه، واستمر التراشق بالنبال طوال اليوم حتى شغل المسلمين عن الصلاة فقضوها.

عيَّن رسول الله ﷺ حراساً على الخندق ليلاً حتى لا يقتحمه المشركون، وقد اغتم أبو سفيان لما رأى من مكيدة حفر الخندق فاستشاط غيظاً وأرسل للرسول كتاباً يقول فيه: باسمك اللَّهمَّ أحلف باللات والعزى وإساف ونائلة وهبل، لقد سرت إليك أريد استئصالكم فأراك قد اعتصمت بالخندق وكرهت لقاءنا، ولك مني يوم كيوم أُحُد. فقرأ أُبي بن كعب الرسالة على الرسول القائد

فأمر بالرد عليه: **(قد أتانا كتابك وقديماً غرّك يا أحمق بني غالب وسفيههم بالله الغرور، وسيحول الله بينك وبين ما تريد، ويجعل لنا العاقبة وليأتين عليك يوم أكسر فيه اللات والعزى وإسافاً ونائلة وهبل يا سفيه بني غالب)**.

شاء الله تعالى أن يسلم في غزوة الأحزاب نعيم بن مسعود الغطفاني وهو صديق قريش واليهود. فجاء إلى الرسول القائد وأعلمه بإسلامه وعرض عليه المساعدة، فقال ﷺ: **(أنت رجل واحد، ماذا عسى أن تفعل؟ ولكن خذّل عنا ما استطعت فإن الحرب خدعة)**. واستطاع نعيم أن يشتت شمل الأحزاب حيث توجه إلى بني قريظة الذين نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ فلما جاءهم أكرموه لصداقته معهم فقال: يا بني قريظة تعرفون ودي لكم، وخوفي عليكم وإني محدثكم حديثاً فاكتموه عني، لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع وبني النضير من إجلاء وأخذ لأموالهم وديارهم، وإن قريشاً وغطفان ليسوا مثلكم فهم إذا رأوا فرصة انتهزوها وإلا انصرفوا لبلادهم.

أما أنتم فتساكنون الرجل ولا طاقة لكم بحربه وحدكم، فأرى أن لا تدخلوا في هذه الحرب حتى تستيقنوا من قريش وغطفان أنهم لن يتركوكم ويذهبوا إلى بلادهم بأن تأخذوا منهم رهائن سبعين شريفاً منهم. فاستحسن اليهود رأيه وأجابوه إلى ذلك، ثم توجه نعيم إلى قريش فاجتمع برؤسائهم، وذكرهم مودته وطلب أن يكتموا حديثه معهم. وأخبرهم أن بني قريظة

ندموا على نقض عهدهم مع محمَّد وخافوا إن ترجعوا وتتركوهم معه واتفقوا لتدارك خيانتهم أن يأخذوا جمعاً من أشرافكم ليسلموهم لمحمَّد وسوف يرسلون إليكم يطلبون رهائن فاحذروهم، واكتموا خبري. ثم أتى غطفان وأخبرهم بمثل ما أعلم به قريشاً.

تحرك أبو سفيان وأرسل وفداً لبني قريظة يدعوهم للقتال غداً، فأجابوه إنّا لا نقاتل يوم السبت ولن نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن منكم ولا تتركونا وتذهبوا إلى بلادكم، فتأكدت قريش وغطفان من كلام نعيم وتفرقت القلوب وخافت الأحزاب من بعضها ودب الفزع في صفوفها. أما المسلمون فقد تماسكت صفوفهم وقويت عزيمتهم وازدادوا ثقة بالنصر وثباتاً على الجهاد حتى نزل فيهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

التوجّه إلى الله بالدعاء:

وأمام تحزّب الأحزاب حول المدينة ونقض العهد من بني قريظة ارتج المسلمون وزلزلوا زلزالاً شديداً من فرط الهول حتى بلغت القلوب الحناجر. ولولا أن الحلوق ضاقت عنها لخرجت، عندها توجه الرسول ﷺ إلى ربه بالدعاء: **(اللَّهمَّ ادفع عنا شرّهم، وانصرنا عليهم واغلبهم لا يغلبهم غيرك)**، فكان عليه السلام يوجه أصحابه فيقول: **(قولوا اللَّهمَّ استر عوراتنا، وآمن روعاتنا)**.

ويردد عليه السلام: (اللَّهمَّ منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللَّهمَّ اهزمهم». ويقول أيضاً: (يا صريخ المكروبين، ويا مجيب المضطرين، اكشف همي وغمي وكربي فقد ترى حالي وحال أصحابي).

استجاب الله دعاء رسوله فأرسل على العدو ريحاً باردة في ليلة مظلمة، وخشي جيش العدو أن يتفق المسلمون واليهود ويقومون بمهاجمتهم تلك الليلة، فأجمعوا على الرحيل قبل الصباح. وحدثت ضوضاء في جيشهم فأراد النبي القائد معرفة خبر القوم، وأرسل حذيفة بن اليمان يكشف الأمر فخاطر بنفسه وعرف عزم العدو على الرحيل، فقد دبت الفرقة في صفوفهم وحطمت الريح خيامهم، وكفأت قدورهم، فعادوا بغيظهم لم ينالوا خيراً. وكفى الله المؤمنين القتال وصدق وعده وأعزَّ جنده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، وانتهت الغزوة بهزيمة الأحزاب وزالت محنة المسلمين، ونجح جند الله في الاختبار وقال عليه السلام: (الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم).

غزوة بني قريظة (شوال سنة ٥هـ):

عاد المسلمون من غزوة الأحزاب منصورين ووضعوا أسلحتهم، فجاء جبريل إلى الرسول عليه السلام يعلمه بأن الملائكة لم تضع السلاح، وأن الله يأمره بالمسير إلى بني قريظة، فأمر الرسول صلى الله عليه وآله من يؤذِّن في الناس: (أنه من كان سامعاً مطيعاً فلا

يصلين العصر إلَّا ببني قريظة)، واستجاب المسلمون للنداء، وتلاحقوا، حتى أن البعض منهم فاته العصر ولم يصلِّ وفضل الوصول أولاً إلى بني قريظة عملاً بظاهر الحديث. فأمرهم الرسول ﷺ بقضائها بعد العشاء الآخرة ولم يؤنبهم الرسول على اجتهادهم ذلك.

حاصر الرسول ﷺ ومن معه يهود بني قريظة خمساً وعشرين ليلة حتى أتبعهم الحصار وامتلأت قلوب اليهود بالرعب، ولما تيقنوا أن رسول الله غير منصرف عنهم حتى ينفذ أمر الله فيهم، اشتد ذعرهم وضاقت عليهم حصونهم، واعترفوا أنهم كانوا إلباً على المسلمين مع المشركين بتحريض من زعماء بني النضير، وحيي بن أخطب على رأسهم، وهم الذين قالوا من رسول الله، لا عهد بيننا وبين محمَّد ولا عقد، فعلموا أنهم ارتكبوا الخيانة العظمى وأنهم الآن سيدفعون الضريبة غالية.

لما تيقن اليهود بالهلاك اقترح كعب بن أسد رأس القوم عليهم ثلاثة حلول ليختاروا منها ما يشاؤون وهي:

١ ـ اتباع الرسول في دعوته وتصديقه، خاصة وأن نبوته منصوص عليها في التوراة، ثم قال: وبذلك تأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. فرفضوا هذا الأمر من أساسه وقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل غيره.

٢ ـ قتل الأبناء والنساء والخروج إلى محمَّد وأصحابه ومقاتلتهم

بالسيف. فإذا ما هلك الجميع لم يتركوا شيئاً يخافون عليه، وإن نجـوا ولم يهلكـوا يتزوجون ويرزقـون أولاداً آخرين فرفضوا وقالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟

٣ ـ الخروج إلى محمَّد ليلة السـبت لمباغتته. قالوا: نفسد علينا سبتنا فيمسخنا الله.

رفض اليهود كل هذه المقترحات وبعثوا إلى رسـول الله ﷺ كي يرسل إليهم أبا لبابة بن عبدالمنذر الأنصاري ليستشيروه في الأمـر، ولما وصل إليهم قـام إليه كبيرهم وصغيرهم، نسـاؤهم وصبيانهم، وهم يبكـون ويتطلعون إلى حكم رسـول الله فيهم، فأشـار بيده إلى حلقـة للدلالة علـى الذبح، فعلـم اليهود أن رسـول الله ينوي ذبح مقاتليهم وسبي نسـائهم وذراريهم. فتفطن أبو لبابة إلى أنه أخطأ بإعلانه ذلك، وربط نفسه بسارية المسجد تعبيراً عن الندم حتى جاء الرسول ﷺ وفك رباطه وأطلق سراحه تعبيراً عن قبول توبته.

لما طال الحال على بني قريظة، نزلوا على حكم سـعد بن معاذ سـيد الأوس رضي الله عنه، لأنهـم كانـوا حلفاءهم فـي الجاهلية واعتقدوا أنه يحسـن إليهم في كل ذلك كما فعل عبدالله بن أبي سـلول في مواليه بني قينقاع، حتى استطلقهم من رسول الله ﷺ. فظن هؤلاء أن سعداً سـيفعل فيهم كما فعل ابن أُبي في أولئك، ولم يعلموا أن سعداً كان قد أصابه سـهم في أكحله «وهو عرق رئيسـي في الـذراع لا يبـرأ إذا قطـع» أيـام الخنـدق فكواه

رسول الله ﷺ في أكحله وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب، وكان سعد قد دعا ربه: «ولا تمتني حتى تقر عيني في بني قريظة». فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدّر عليهم أن ينزلوا على حكمه باختيارهم، طلباً من تلقاء أنفسهم.

قال رسول الله ﷺ لسعد: **(إن هؤلاء ـ** وأشار لليهود ـ **قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت)**. فقال رضي الله عنه: «وحكمي نافذ عليهم» قال عليه السلام: **(نعم)** قال معاذ: «لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، إني أحكم عليهم أن تقتل مقاتليهم، وتُسبى ذريتهم وأموالهم»، فقال عليه السلام: **(لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة،** «أي: سماوات»). ثم أمر الرسول ﷺ بالأخاديد فخدّت ونفذ فيهم حكم الله.

وبهذه الحادثة ضعفت حركة النفاق في المدينة، وطأطأ المنافقون رؤوسهم، وجبنوا عن كثير مما كانوا يأتون، وتبع هذا وذاك أن المشركين لم يعودوا يفكرون في غزو المسلمين، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزون، ويمكن أن يقال: إنه كان تلازم بين حركات اليهود وحركات المنافقين وحركات المشركين، وإن طرد اليهود من المدينة أنهى هذا التلازم. فهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧].

صلح الحديبية (ذو القعدة سنة ٦هـ):

التوجّه إلى مكّة المكرّمة لأداء مناسك العمرة:

بعد غزوة الأحزاب بلغ الرسول خبر مفاده أن تحالفاً عُقد بين قريش ـ جنوب المدينة واليهود ـ في خيبر ـ شمال المدينة ـ الغاية منه جعل الرسول وجنده ومدينته بين فكي الكماشة.

فكّر الرسول ﷺ في عمل لفك هذا الحصار الجديد وقلب الأمور من مختلف جوانبها لضمان أوفر الحظوظ لنجاحها، وبينما هو كذلك جاءته إشارة ربانية تثبت فؤاده وتؤيد عزمه على ما نوى وقرَّر. رأى عليه السلام رؤيا أنه دخل المسجد الحرام هو وأصحابه وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا وحلق بعضهم وقصّر الآخر، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم سيدخلون مكّة عامهم هذا.

تأمين المدينة من الداخل:

لم يتحرك المسلمون صوب مكّة إلا بعد توفير الأمن للمدينة وأخذ الحيطة من المفاجآت، والاستعداد التام للدفاع عنها في حالة حدوث ما لم يكن في الحسبان. فقد تطهرت المدينة من اليهود بالداخل، وألحقت بخيبر ضربات أضعفتها بحيث لا يمكن أن تفكر بالإساءة للمدينة في هذه المرحلة، خاصة بعد أن تمكّن المسلمون من قتل مَلكين من ملوكهم داخل خيبر نفسها، وهما: أبو رافع سلام بن أبي الحُقيق ملك اليهود، وأسير بن زرام. وقد سبقهما إلى

القتل كعب بن الأشـــرف وذلك قبل أُحُد. وبهذه الأحداث استولى الخوف على اليهود فتلاشـــت من أذهانهم فكرة غـــزو المدينة التي كانت تراود أحلامهم، واكتفوا بالبقاء داخل حصونهم.

بعد فشل الأحزاب واندحارهم وإضعاف اليهود والمنافقين، باتت قريش عاجزة عن العودة إلى المدينة للقتال، على الأقل في الوقت الراهن. وبهذا، أصبحت المدينة آمنة من الداخل والخارج، عندها عيّن الرسول ﷺ نميلة بن عبد الله الليثي أميراً على المدينة، ثم قرَّر الخروج برجاله إلى مكَّة المكرمة لأداء مناســـك العمرة، وأعلن أن رحلته ســـلمية لا حرب فيها، الهدف منها زيارة البيت والطواف به، لِتَعْلَم قريش بأنهم لا يريدون قتالاً. فنشط المسلمون للخروج وتخاذل المنافقون والأعـــراب لظنّهم أن الرحلة محفوفة بالمخاطر ولا مغنم فيها.

رفعت هذه الرحلة شـــعارات السلم لتعلم قريش بذلك، لكن الرســـول ﷺ كان شـــديد الحذر من المفاجآت ومن أحداث في الطريق. فقد تتصرّف قريش بحماقة. وقد يصدر من ســـفهائها ما يلحق الأذى بأصحابه فقرر ما يلي:

١ ـ ندب المسلمين حاضرة وبادية للخروج معه.

٢ ـ غض الطرف عـــن أعمـــال المنافقين مـــن تثبيـــط للعزائم وتشكيك في النصر.

٣ ـ المســـير بالأصفياء من أصحابه الذين ســـارعوا بالاستجابة دون تردد.

وقدّر الله تعالى ألا يخرج معه إلا الخُلصاء من أصحابه الذين صدقوا الله ما عاهدوه عليه.

ولعلها حكمة أرادها الله تعالى لعبـاده الصالحين وذلك بأن لا يشرف بفضل بيعة الرضوان إلا الصادقون.

جاءت آيات تفضح الأعراب والمنافقين:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفتح: ١١، ١٢].

ونزلت آيات في المؤمنين ترفع مـن قدرهم عند الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

إظهار علامات النسك:

ساق الرسول ﷺ سـبعين بدنة هدياً وقلّدها بعلامات تعرف بهـا ليعلم الناس أنها هدي. واسـتعمل عليهـا ناجية بن جندب السـلمي يرعاها ويحرسـها، وأمره أن يتقدم بها إلى ذي الحليفة ميقات الإحرام لأهل المدينة، كما سـاق الموسرون من الصحابة هديهم تأسياً برسـول الله ﷺ. وفي هذا إعلان صريح عن سلمية

الرحلة والقصد إلى البيت الحرام للعبادة، فإذا منعته قريش أو حاربته، فقد أدينت عند جميع العرب وأمام كل القبائل، وخسرت الرهان.

أعلن الرسول ﷺ بوضوح أن مسيره إنما هو لأجل أداء مناسك العمرة، لكن هذا الإعلان لا يمنعه من أخذ كل وسائل الحيطة والحذر. خاصة في مثل هذه الظروف التي تُنصِب فيها قريش نفسها شرطي الجزيرة العربية دون سواها، وتتربص للمسلمين في كل مكان للانتقام منهم، خاصة بعدما لحق بها من هزيمة منكرة في غزوة الأحزاب، ورجعت إلى مكَّة دون أن تحقق وعودها بالانتقام، وتحقيق النصر الساحق. أمر رسول الله ﷺ بشر بن سفيان الكعبي بأن يقوم بمهمة الاستخبارات، ويجمع المعلومات عن قريش وعن نواياها. وأمره بأن يتقدم الجيش، ويدخل مكَّة ويرصد تحركات قريش، وواعده مكاناً يلقاه فيه.

قاد الرسول ﷺ أصحابه صوب مكَّة المكرمة، تحدوهم آمال اللقاء بذويهم الذين مُنعوا من الخروج إلى المدينة، ويدفعهم الشوق للطواف بالبيت العتيق، فخطّط عليه السلام للرحلة بحكمة وحَذَر، وسعى جهده تجنيب أتباعه المواجهة المسلّحة مع قريش.

ويظهر ذلك فيما يلي:

١ ـ تحديد الطرق التي يسلكها الرسول وأصحابه مع مراعاة السلامة والأمان والحذر من الغارات المفاجئة أو الكمائن المباغتة.

٢ ـ تم تغيير الطريق عند الضرورة تجنّباً للصدام الدامي، فاتخذ الرسول ﷺ المسالك الوعرة بعد أن علم أن قريشاً اجتمعت لصدّه عن البيت الحرام.

٣ ـ عرض الإسلام على القبائل المتناثرة في الصحراء المحاذية للطريق الذي يسلكه المسلمون، لكسب مزيد من الأنصار وتأمين نقاط العبور.

٤ ـ التعامل مع بعض الأحداث بحكمة بالغة، نابعة من روح الشريعة السمحة، فقد قدمت بعض القبائل للرسول عليه السلام بعض الهدايا كاللبن وبعض الأغنام فلم يقبلها وأمر أصحابه بشرائها.

٥ ـ تعهّد الرسول القائد ﷺ لجنده بالرعاية والمتابعة لأمورهم فقد كان عليه السلام يتفقد أحوالهم، ويشجعهم على مواصلة السير وتحمّل المشاق والصبر على الجوع والعطش والصمود أمام المخاطر، وكان عليه السلام يذكّرهم بربّهم ويقوي إيمانهم بالله وثقتهم به ويعدهم الجزاء الأوفى من رب مقتدر.

كانت نية الرسول ﷺ في الخروج إلى مكّة أداء مناسك العمرة وليس للحرب، ولكي يطمئن كل من يراه لم يأخذ معه سلاح الحرب، بل اقتصر الأمر على حمل السيوف، على أن تكون في أغمدتها. وسار الركب حتى وصل عسفان على مقربة من مكّة فالتقى بالكشاف الذي أرسله عليه السلام لاستطلاع الأمر، فقام الرجل بالمهمة خير قيام، وذكر أن قريشاً عازمة على منع الرسول ومن معه لأداء المناسك، بل استعدت للحرب وتمركزت خارج

الحدود لصد المسلمين من الدخول إلى مكَّة، واستنفرت القبائل واصطحبت النساء والأطفال إعلاناً عن التصميم على الحرب وإرجاف المسلمين. وقد استقرت قريش بواد قِبَل مكَّة من جهة الغرب يسمى بلدح.

اضطر رسول الله ﷺ أن يغيّر الطريق حتى لا يصطدم بالمشركين ولما وصل إلى مكان اسمه الحديبية بركت ناقته، فزجروها إلا أنها لم تقم فأخبرهم رسول الله ﷺ بقوله: (**حبسها حابس الفيل**) أي أن عدم قيامها كان أمراً إلٰهياً، عندها أقسم الرسول ﷺ أن أي أمر يعرض عليه من قبل المشركين وفيه تعظيم لحرمات الله إلا رضي به.

وبدأ بعض القريشيين يفدون على رسول الله ﷺ يستفسرون عن سبب المجيء، فيبين لهم عليه السلام مقصده، ونيّته دخول مكَّة للعبادة وقد ساق هَدْيه.

اختار رسول الله ﷺ عثمان بن عفّان لمكانته عند القريشيين ليدخل مكَّة، فسمحوا له بالطواف إلا أنه أبى وقال: لا أطوف ورسول الله ممنوع. فأصرّ القريشيون على الرفض وصد المسلمين عن دخول مكَّة المكرمة هذا العام، وحبسوا عثمان فأشيع بين المسلمين أن عثمان قُتل، عندها صرّح الرسول ﷺ بأنه لن يغادر المكان إلا بعد مناجزة القوم. ودعا المسلمين للبيعة على القتال فبايعوه تحت الشجرة، سميت فيما بعد شجرة الرضوان لاشتهار البيعة ببيعة الرضوان، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

علمت قريش بالبيعة فأرسلت جنوداً لمناجزة المسلمين وأسر بعض منهم، فلم تفلح بل وقع الأسر فيهم، إذ ألقى المسلمون القبض على اثنتي عشر رجلاً منهم، وقتل واحد من المسلمين ولما كان الأمر كذلك رأت قريش أن تنحو منحى المفاوضات، فلم يتعجل الرسول ﷺ بالدخول إلى مكّة متجنّباً بذلك كل الصدامات التي يمكن أن تحدث، وأعطى الفرصة للمفاوضات، فلعل في قريش بقية من رجال يحكِّمون عقولهم ويستجيبون لنداء العقل والحكمة.

وسيط السلام الأول:

أقبل وفد من خزاعة برئاسة بُديل بن ورقاء، ووقف بين يدي رسول الله ﷺ ناصحاً له بعدم مجاراة قريش في تعنُّتها، فأعلن له رسول الله ﷺ بنيّته من الخروج فقال: **(إنّا لم نأتِ لقتال أحد، إنما جئنا لنطوف بهذا البيت، فمن صدّنا قاتلناه، وقريش قد أضرّت بهم الحرب وأنهكتهم، فإن شاؤوا ماددتهم مدة يأمنون فيها ويخلون فيها بيننا وبين الناس، والناس أكثر منهم، فإن ظهر أمري على الناس، كانوا بين أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس أو يقاتلوا وقد جمعوا. والله لأجهدنَّ على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي أو ينفذ الله أمره)**.

الوسيط الثاني:

وقف عروة بن مسعود الثقفي وسيطاً لقريش على رسول الله ﷺ وهو يعلم أن محمَّداً على حق وأن قريشاً على باطل، لكنه بحكم الحلف بينه وبين قريش حاول أن يلقي اللوم على رسول الله ﷺ كما حاول أن يرجفه ويخوفه من قوة قريش، فقال: أَجَمَعْتَ أَوْشاب الناس ثم جئت إلى بيضتك لتفضها بهم، هذه قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبداً، وأيم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غداً، يقصد أصحاب الرسول، فرد عليه الرسول ردًّا حكيماً ألجم فمه وأخرس لسانه وقد رأى أصحابه عليهم السلام يحوطون رسولهم ويمنعونه بكل اقتدار ويصدّون كل من تسوِّل له نفسه المساس به فعاد إلى قريش يحمل إليهم الخبر اليقين.

الوسيط الثالث:

بعثت قريش مكرز بن حنص بن الأخيف فلما رآه رسول الله ﷺ قال: هذا رجل غادر فلما انتهى إلى رسول الله وكلّمه قال له عليه السلام ما قاله لبديل وأصحابه فرجع إلى قريش فأخبرهم بما سمع من حكمة الرسول وشجاعة أصحابه الكرام.

الوسيط الرابع:

بعثت قريش الحليس بن علقمة سيد الأحابيش فلما رآه

الرسول ﷺ قال: **(إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه)** فلما رأى الهدي مقبلاً عليه من عرض الوادي عاد من حيث جاء إعظاماً لما شاهد.

أعيت قريشاً الحيلة فأرسلت سهيلاً بن عمرو ليصالح رسول الله ﷺ ويعرض عليه الشروط التي وضعتها قريش وهي كالتالي:

١ ـ وقف القتال لمدة عشر سنوات.

٢ ـ من لجأ إلى المسلمين من القريشيين رد إلى أهله، ومن لجأ من المسلمين إلى قريش لا يرد.

٣ ـ تأجيل العمرة إلى العام المقبل على أن لا يكون مع رسول الله ﷺ إلا السيف في القراب والقوس.

٤ ـ ترك الحرية للقبائل العربية كي تنضم إلى أي فريق من الفريقين.

قَبِل رسول الله ﷺ كل هذه الشروط ودونت في وثيقة من نسختين ليحتفظ كل فريق بنسخته ولما انتهى الأمر على ذلك نحر رسول الله ﷺ هديه وحلق رأسه واقتدى به المسلمون بعد ذلك وعند رجوعه من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح تصف هذه الغزوة بالفتح المبين مفتتحة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. وهي بشارة للرسول ﷺ وأصحابه بالنصر المبين والفتح القريب. وفي هذه السورة أيضاً فضح الله تعالى المنافقين وكشف عن نواياهم الخبيثة، كما فضح الأعراب الضائعين وجاء

أيضاً الإعلان من رب العزة بالرضا عن أولئك المجاهدين الذين بايعوا الرسول على الموت لنصرة دين الله تعالى.

الرسائل إلى الملوك:

عاد المسلمون من الحديبية وقد فتح الله عليهم فأمنوا الطريق من قريش، وبدأ رسول الله ﷺ يكاتب الملوك في مختلف الجهات من الجزيرة العربية يدعوهم إلى الإسلام، واتخذ خاتماً من فضة نقش عليه: «محمَّد رسول الله» يختم رسائله، وبهذا ينطلق الإسلام من المدينة المنورة وطن الدعوة إلى مناطق النفوذ الأجنبي بدءاً بالممالك والإمارات التابعة لنفوذ الدول الكبرى آنذاك ومروراً بالقبائل والتجمعات التي تتمتع بنوع من الاستقلال وتؤثر فيمن حولها من البلاد والعباد ووصولاً إلى أعماق الدولتين المتصارعتين على اقتسام العالم القديم.

رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس:

في هذه الرسالة ركز عليه السلام على الدعوة إلى الإسلام والتذكير باليوم الآخر وما فيه من حسن العاقبة وختمها بالدعوة إلى التسليم بالوحدانية لله تعالى ونفي ما علق من اعتقادات أهل الكتاب الزائفة: قال عليه السلام: **(بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم، من محمَّد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تَسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت**

فإن عليك إثم القبط: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]).

رسالة الرسول ﷺ إلى هِرقل:

دعاه فيها إلى الإسلام ورغَّبهُ فيه ووعده بالأجر في الآخرة، ودعاه إلى توحيد الله ونبذ العبودية الزائفة: (بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من محمَّد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]).

رسالة الرسول إلى النجاشي:

ركز في دعوته على الثناء على عيسى عليه السلام مع بيان أنه روح الله ونبيّه المرسل والتركيز على القول الصحيح فيه، فهو بشر من خلق الله، وهو ابن مريم البتول الطاهرة، كما رغبه في اتباع الهدَى وقبول النصيحة (بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم من محمَّد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة سلامٌ عليك فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن

مريم روح الله وكلمتــه ألقاها إلى مريم البتــول الطيبة الحصينة فحملت بعيســى فخلقه الله من روحه ونفخــه كما خلق آدم بيده ونفخه وإني أدعوك إلى الله وحده لا شــريك لــه والموالاة على طاعتــه وأن تتبعني وتؤمن بالــذي جاءني فإني رســول الله وقد بَعثت إليك ابــن عمي جعفراً ونفــراً من المســلمين فإذا جاءك فأقرهــم ودع التجبر فإني أدعــوك وجنودك إلــى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحي والسلام على من اتبع الهدى).

رسالة الرسول ﷺ إلى كسرى عظيم الفرس:

دعاه إلى الإسلام والتصديق بالنبوة والرسالة بعبارات مختصرة وحذَّره من عاقبة التكذيب (بســم الله الرَّحمٰــن الرَّحيم، من محمَّد رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشــهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأن محمَّداً عبده ورســوله، أدعوك بدعاء الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً. أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس).

رسالة الرسول ﷺ إلى عُمان:

حملها داهية العرب عمرو بن العاص، دعا الأخوين الملكين عبد وجيفر ابني الجلندى ونجح في إقناعهما بالإسلام (بسم الله الرَّحمٰــن الرَّحيم مــن محمَّد بن عبــدالله إلى جيفــر وعبد ابني الجلندى ســلام على من اتبع الهــدى، أما بعد: فإنــي أدعوكما

بدعاية الإسلام أسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين وأنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرّا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما).

نتائج الرسائل:

اختلفت النتائج مع بعض الملوك والأمراء، أما المقوقس فقد استلم الرسالة من حاطب بن أبي بلتعة وناقشه وحاوره ورأى فيه حكمة وقال له: أنت حكيم جئت من عند حكيم فأحسن استقباله وكاتب رسول الله ﷺ وبعث إليه بهدية جاريتين إحداهما مارية القبطية أم المؤمنين ووالدة إبراهيم والأخرى سيرين التي وهبها لحسان بن ثابت.

أما رسالته عليه السلام إلى هِرقل فقد حملها دحية الكلبي الذي صادف ملك الروم بحمص متوجهاً إلى بيت المقدس فلما قُرِئ عليه الكتاب أظهر مَيلاً وظهرت عليه علامات التصديق فلغط أهلَ دولته استنكاراً وضجوا فخاف على ملكه ولم يسلم ووضع كتاب رسول الله ﷺ في قصبة من ذهب تعظيماً له وما زال القياصرة يتوارثونها ردحاً من الزمن اعتقاداً منهم أن دوام ملكهم مرهون ببقاء هذا الكتاب عندهم.

تقديس ملوك الروم للرسالة:

ذكر الحافظ ابن حجر: أن الملك المنصور قلاوون أرسل

بعض أمرائه إلى المغرب بهدية، فأرسله ملك المغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة فقبله وأكرمه وقال له: لأتحفنك بتحفة سنية فأخرج له صندوقاً مصفحاً بالذهب وأخرج منه مقلمة أو قصبة من الذهب فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه وقد ألصق عليه خرقة حرير فقال: هذا كتاب نبيِّكم لجدي قيصر ما زلنا نتوارثه إلى الآن وذكر لنا آباؤنا عن آبائهم أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزول الملك عنا فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا.

أما رسالة النجاشي فقد استلمها من عمرو بن أمية الضمري فاحترمه وأكرمه، وتروي بعض الروايات أن النجاشي عظم كتاب النبي ﷺ ثم أسلم، وكان من أعلم الناس بالإنجيل وصلى عليه النبي ﷺ يوم مات بالمدينة وهو بالحبشة، وقد رجّح هذا الرأي كثير من المؤرخين وقد أرسل رسالة إلى رسول الله يعلن فيها عن إسلامه قائلاً: «وقد عرفنا ما بُعثت به إلينا وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صدقاً مصدقاً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأصحابه وأسلمت على يديه لله رب العالمين».

أما كسرى وكان السفير إليه عبد الله بن حذافة فما كاد أن يطلع على الرسالة حتى مزقها وكتب إلى بعض أمرائه في اليمن أن يقصد محمَّداً ويستتيبه وإلا فليبعث برأسه فعلم رسول الله ﷺ بذلك فدعا عليه: (اللهم مزق ملكه) فلم تمر أيام حتى قُتل كسرى على يد ابنه سيرويه ونفذ الله فيه حكمه واستجاب لدعاء

رسوله ﷺ إذ لم تلبث دولة كسرى فترة حتى سقطت بأيدي المسلمين ومزّق ملك كسرى شر ممزّق.

وأرسل الرسول عليه السلام إلى أمير بصرى كتاباً مع الحارث بن عمير الأزدي فلما وصل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني وسأله إن كان من رسل محمَّد، فقال نعم، فقتله وحزن عليه الرسول ﷺ. ولم يقتل له رسول غيره واختار النبي عليه السلام شجاع بن وهب ليكون مبعوثه إلى الحارث بن أبي شمر أمير دمشق ودعاه إلى الإسلام فرمى الحارث بالكتاب واستعد ليحارب المسلمين وأرسل يستأذن قيصر الروم فأثناه عن عزمه فصرف الحارث شجاعاً بالحسنى.

كما بعث عليه السلام العلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين دعاه فيه إلى الإسلام قائلاً فيه: **(فإن من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول من أحب ذلك من المجوس فإنه آمن ومن أبى فإن عليه الجزية)**.

أسلم المنذر ملك البحرين وأسلم بعض الناس، وفرض الجزية على المجوس واليهود الذين لم يسلموا، وأرسل عليه السلام سليط بن عمرو العامري بكتاب إلى هوذة بن علي ملك اليمامة ودعاه إلى الإسلام مشيراً إلى أن الإسلام سيظهر وينتصر فاشترط هوذة أن يكون له بعض الأمر حتى يتبع الرسول فرفض النبي ﷺ ولم يلبث هوذة أن مات إثر فتح مكَّة وبهذه الكتب بلَّغ رسول الله ﷺ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض.

خبر مازن بن غضوبة بن بشر الطائي:

عن عبد الله العُماني، عن مازن بن غضوبة قال: كنت أسدّن صنماً بسمَّائل قرية بعُمان «أي: سمائل» فعترنا ذات يوم عنده عتيرة، وهي الذبيحة، فسمعنا صوتاً من الصنم يقول: يا مازن اسمع تسرّ، ظهر خبر وبطن شر، بعث نبي من مضر، بدين الله الأكبر، ثم عترت بعد أيام عتيرة فسمعت صوتاً من الصنم يقول: أقبل إليَّ أقبل تسمع ما لا يُجهل، هذا نبي مرسل جاء بحق منزل، فآمن به كي تعدل عن حر نار تُشعل وقودها بالجندل، فقلت: إن هذا لعجب، وإنه لخبر يُراد بي فبينما نحن كذلك إذ قدم رجل من أهل الحجاز قلنا: ما الخبر وراءك؟ قال: ظهر رجل يقال له أحمد يقول لمن أتاه: أجيبوا داعي الله، فقلت: هذا نبأ ما سمعت، فثرت إلى الصنم فكسرته جذاذاً وركبت راحلتي فقدمت على رسول الله ﷺ فشرح لي الإسلام فأسلمت.

قال مازن: فقلت يا رسول الله إني مولع بالطرب وبشرب الخمر وبالهلوك من النساء، وألحّت علينا السِنون فذهبن بالأموال وهزلن الذراري والعيال وليس لي ولد، فادع الله أن يُذهب عني ما أجده ويأتيني بالحيا (أي: المطر والخصب) وَيَهَب لي ولداً، فقال النبي ﷺ: **(اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن، وبالحرام الحلال، وبالخمر ريًّا لا إثم فيه، وبالعهر عفة الفرج، وائته بالحيا، وهب له ولداً)** قال مازن: فأذهب الله عني ما كنت أجد، وتعلمت

شــطر القرآن، وحججت حِججاً، وأخصبت عُمان ووهب الله لي حيان بن مازن.

فأصبحــت همي فــي الجهــاد ونيتي
فللــه مــا صومــي ولله مــا حجــي

قال مازن شعراً بعد لقائه برسول الله ﷺ:

إلــيــك رســـــول الله خــبــت مطيتي
تجوب الفيافي من عُمان إلى العُرج
لتشــفع لي يا خير من وطــئ الحصى
فيغفــر لــي ربــي وأرجــع بالفلــج
إلــى معشــر خالفــت فــي الله دينهم
فلا رأيهم رأيي ولا شــرجهم شــرجي
وكنــت امــرأً بالزعب والخمــر مولعا
شــبابي حتــى آذن الجســم بالنهــج
بدلنــي بالخمــر خوفــاً وخشــية
وبالعهــر إحصانــاً فحصن لــي فرجي
فأصبحــت همي فــي الجهــاد ونيتي
فللّــه مــا صومــي ولله مــا حجــي

الفلج: الفــوز والظفر، الشــرج: الطبيعة والشــكل، الزعب: الجماع، النهج: البلى.

إسلام مازن بن غضوبة:

قدم رجل من الحجاز إلى عُمان ومرَّ بسمائل فالتقى بأهلها ومنهم مازن بن غضوبة فأخبرهم بظهور النبي ﷺ وبيّن لهم أن محمَّداً يدعو إلى الله ونبذ عبادة الأوثان، وأنه يبشِّر بالجنَّة ويحذِّر من النار، فأدرك مازن سر الصوت الذي كان يسمعه من خلف الصنم يدعوه إلى الإسلام فقام مازن وحطّم الصنم وارتحل إلى المدينة ليُسْلِم على يد رسول الله ﷺ ويسأله عن دينه، فلما وصل المدينة شرح الله صدره للإسلام ونوّر قلبه وأعلن إسلامه على مسامع رسول الله والمسلمين.

سأل مازن رسول الله ﷺ أن يدعو لأهل عُمان ويبارك فيها، كما سأله أن يخصه بالدعاء فيذهب الله ما فيه من بقايات الجاهلية ويمنحه الطمأنينة والاستقرار، فدعا النبي ﷺ: **(اللَّهمَّ أبدله بالطرب قراءة القرآن، وبالحرام الحلال، وبالعهر عفة الفرج، وبالخمر ريًّا لا إثم فيه، وهب له ولداً تقر به عينه)**، ورجع الصحابي مازن رضي الله عنه إلى عُمان ينشر الإسلام في قومه فبنى مسجداً في سمائل ودعا إلى توحيد الله فاهتدى بعض قومه على يديه.

وبعد سنة عاد مازن ثانية إلى المدينة ليخبر رسول الله ﷺ بما منَّ به الله على أهله من دخول في دين الله تعالى وكيف بارك الله لعُمان استجابة لدعاء نبيّه، فأخصبت وكثرت الأرباح والصيد فاستبشر الرسول ﷺ بإسلام أهل عُمان ودعا لهم بمزيد الخير فقال: **(اللَّهمَّ وسِّع عليهم في ميرتهم وأكْثِر خيرهم من بحرهم.**

اللَّهمَّ لا تسـّلط عليهم عدواً من غيرهم) فأمَّن مـازن على دعاء رسـول الله وقفل راجعاً ليواصل نشـر الإسلام في سـمائل وما حولها.

غزوة خيبر (محرم السنة السابعة):

لما فشـلت الأحزاب في اقتحـام المدينة والنيـل من أهلها وجنى يهود بني النضير وبني قريظة عاقبة غدرهم، لم يهدأ ليهود خيبر بال ولم يسـعوا إلى إصلاح أمرهم مع المسـلمين لكنهم سـعوا جهدهم إلى الكيد لهم وألبوا عليهم الأعراب الموجودين حول المدينة وملأوا صدورهم حقداً على الإسلام وأهله، غير أن المسـلمين كانوا يقظين فلم تخف عليهم هـذه المؤامرة، فما إن عادوا من صلح الحديبية آخر السـنة السادسـة حتى توجهوا في شهر محرم من السـنة السابعة إلى خيبر ليكسـروا شوكة اليهود والقضاء على آخر معقل لهم في الجزيرة العربية.

سار المسلمون إلى خيبر وأوهموا قبائل العرب المتحالفة مع يهود خيبـر ومنهم غطفان أنهـم يريدون المسـير إليهم ليقطعوا صلتهم بأحلافهم وأدخلوا في قلوبهم الرعب حتى ظن المشركون أن رسـول الله ﷺ يريدهم، فتأخروا عن مناصرة أحلافهم اليهود، وتراجعوا إلى مواقعهم، وأقاموا في أحيائهم مع أهليهم وأموالهم ونجحت الخطة وخلا للمسـلمين الأمر لملاقاة قادة يهود خيبر. كانت خيبـر عبارة عن عدد مـن الحصون المنيعـة يلتجئ إليها

اليهود إذا أحسّوا بخطر يداهمهم وكان اقتحامها مهمّة صعبة أمام المسلمين.

لما أشرف المسلمون على خيبر استوقف رسول الله ﷺ جنده ثم توجه إلى الله تعالى متضرعاً إليه بالدعاء يسأله النصر والتأييد ثم قال عليه السلام: **(أقدموا باسم الله)** هاجم المسلمون اليهود في مخابئهم فبدأت الحصون تسقط الواحد تلو الآخر رغم محاولات اليهود الفاشلة في الدفاع عنها، وكانوا كلما سقط حصن التجأوا إلى آخر حتى انتهى المسلمون من فتح الجانب الأول من خيبر «الشق» و«النطاة» وفرَّ اليهود إلى الشق الثاني.

اشتد حصار المسلمين للجهة الثانية من خيبر وطال حتى بلغ أربعة عشر يوماً كانوا يقومون بمحاولات لإخراج المقاتلين اليهود من حصونهم وجرّهم إلى المبارزة والقتال فخرج إليهم فارس يهودي يدعى «مرحبا» فخرج إليه علي بن أبي طالب وفتك به ثم بدأ فرسان اليهود يبرزون لينتهي أمرهم بالقتل على أيدي المجاهدين الأبطال.

تشتت اليهود بحصونهم وشدد المسلمون عليهم الحصار حتى أجهدهم الجوع وظهرت فيهم الأمراض بسبب تغيُّر الجو وكثرة المستنقعات، عندها التجأ رسول الله ﷺ إلى قطع الماء عن حصون اليهود ليضطرهم إلى الخروج للمبارزة.

لما قطع الماء عن اليهود خرج بعض الجند للقتال وتشابك معهم المسلمون في صراع شديد استشهد فيه عدد منهم، ولم

يتوقف القتال حتى سقطت الحصون في أيدي المسلمين ولم يبق منها إلا القليل فهَمَّ رسول الله ﷺ أن ينصب المنجنيق ليدك بها ما تبقّى من الحصون عندها أيقن اليهود بالهلكة ونزلوا يطلبون الصلح فصالحهم رسول الله ﷺ على أن يخرجوا من أرض خيبر ولهم ما حملت إبلهم وللمسلمين سائر ما بقي على ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً فإن فعلوا فلا ذمّة لهم ولا عهد.

لم يَفِ اليهود بالعهود على عادتهم في الغدر والخداع فسعوا إلى إخفاء أموال لحُيَيْ بن أخطب فلما علم رسول الله ﷺ بذلك قتل الغادرين وخضع سائر اليهود ثم جاؤوا يعرضون على رسول الله أن يعاملهم بالنصف في زراعة الأرض على أن يبقى الحق لرسول الله في إخراجهم متى شاء.

لا ريب أن الهزيمة التي أصابت اليهود في خيبر قضت على كيانهم العسكري في الجزيرة العربية ومهّدت لاستسلام بقايا اليهود المتناثرين في أنحاء الجزيرة وبذلك يكون أمرهم قد انتهى ليتوجه المسلمون إلى مواصلة الدعوة ونشر الإسلام.

عمرة القضاء (ذو القعدة السنة السابعة للهجرة):

خرج رسول الله ﷺ من المدينة قاصداً مكَّة لأداء العمرة بعد سنة من صلح الحديبية وكان ذلك في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة وخرج معه كل من شارك في الحديبية فلما سمع به أهل مكَّة خرجوا واصطفوا عند دار الندوة لينظروا إلى النبي

وأصحابه ماذا يفعلون وكانوا يرددون: قد جاءكم المسلمون وقد أنهكتهم حمى المدينة، فخيب الرسول ﷺ ظنّهم وأمر أصحابه بالاضطباع والرمل في الأشواط الثلاثة الأولى من الطواف ليثبت لأهل مكّة سلامة المسلمين واكتمال قواهم.

لما دخل عليه الصَّلاة والسَّلام مكّة اضطبع بردائه؛ أي: أدخل رداءه تحت إبطه الأيمن وجعل طرفه على منكبه الأيسر، ثم استلم ركن الحجر الأسود وهرول هو وأصحابه، وهو المعروف «بالرَّمل» وهو منسوخ لأن الرسول ﷺ لم يقم به إلا عندما اتُّهم بالتعب والجهد والأعياء ومشى بقية الأشواط، وكذلك فعل أصحابه وبرهنوا للمشركين أنهم أشداء أقوياء خلافاً لما يزعمون، ثم أقام رسول الله بمكة ثلاثاً وجاءه حويطب بن عبدالعزى في نفر من قريش في اليوم الثالث وكانت قريش قد وكلته بذلك فقالوا له قد انقضى أجلك فاخرج عنا. فخرج عليه السلام حسب الوعد، وصدق الحق تعالى حيث يقول: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧].

غزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨ هـ):

بعث النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي إلى أمير بُصرى يدعوه إلى الإسلام فاعترضه شرحبيل الغساني بمؤتة فقتله فجهز رسول الله ﷺ جيشاً للقصاص ممن قتلوا رسوله واختار لهذا الجيش زيد بن حارثة أميراً وقال لهم: «إن أصيب فالأمير

جعفر بن أبي طالب، فإذا أصيب فعبدالله بن رواحة»، وكان عدد الجيش ثلاثة آلاف مسلم، وقد شيّعهم رسول الله وأوصاهم قائلاً: **(اغزوا باسم الله، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء)**.

انطلق الجيش متجهاً إلى مؤتة فلما وصلوها وجدوا جمعاً عظيماً للروم قوامه مائة ألف، وانضم إليهم عدد كبير من العرب المتنصرين، فتشاور المسلمون في الأمر هل يطلبون مدداً أم يقدمون على الحرب؟ فقال عبدالله بن رواحة: «يا قوم والله إن الذي تكرهون هو ما خرجتم له، خرجتم تطلبون الشهادة، ونحن ما نقاتل بقوة ولا بكثرة، ما نقاتل إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فإنما هي إحدى الحسنيين، إما الظهور وإما الشهادة» فقال الناس: صدق والله ابن رواحة، وأجمعوا على المضي للقتال.

عسكر المسلمون بمؤتة والتقوا بجموع الروم، وبدأ القتال المرير. ثلاثة آلاف رجل يواجهون أكثر من مائة ألف مقاتل. أخذ الراية زيد بن حارثة وقاتل ببسالة وصمود، واستمر يقاتل حتى استشهد، فاستلم الراية بعده جعفر بن أبي طالب وصمد في القتال ولم يزل يقاتل حتى استُشهد. ثم أخذ الراية بعده عبدالله بن رواحة وتقدّم بها واقتحم بفرسه وقاتل قتالاً شديداً، ولم يزل ثابتاً حتى أكرمه الله بالشهادة، وهمَّ البعض بالرجوع إلى الوراء لكن عقبة بن عامر منعهم مذكراً إن موت الإنسان وهو

مقبل خير من موتــه وهو مدبر فثبتوا وســلموا القيادة لخالد بن الوليد.

اســتطاع خالد بن الوليد صاحب الخبرة في المناورة والقتال أن ينقذ بقيــة الجيش من المحق الكامل فقاتــل طوال النهار قتالاً شــديداً، ومن الغد غَيَّر خالد ترتيب جيشــه فجعل الميمنة ميسرة والمقدمة مؤخــرة والعكس، فظن الروم أن المدد جاء للمســلمين فأصابهم رعب كبير، وأخذ خالد يتأخر بالجيش مع المحافظة على نظامه، ولم يتبعهم الروم ظنًّا منهم أن المسلمين يخدعونهم لجرهم إلى الصحراء ويتوالى المدد عليهم فلا يمكن للروم من التخلّص، فلم يتبعوهم وانحاز المســلمون إلى مؤتة وعاد الروم إلى بلادهم واستطاع خالد أن ينجو بجيشه والعودة به إلى المدينة.

نعى رســول الله ﷺ زيداً وجعفــراً وابن رواحــة للناس قبل وصول الجيش وذرفت عينا رســول الله ﷺ ثم أخبرهم بأن سيفاً من ســيوف الله أخذ الراية حتى فتح الله عليهم ولما أقبل الجيش إلى المدينة أخذ يقابلهم الناس بالســخرية وقالــوا لهم: يا فرار، فقــال عليه السلام: (بل هم كــرّار) وأثنى علــى خالد فــي قدرته على المناورة في الحرب ومهارته الفائقة فــي فنون التخطيط والقتال. وبذلك انتهــت معركة مؤتــة وهي أكبــر حرب داميــة خاضها المســلمون في عهد رســول الله وقد كانت تمهيــداً لفتح بلدان النصارى وقد استشــهد من المسلمين اثنا عشــر رجلاً وقتل من الكفار الروم عدد كبير.

الفتح الأعظم فتح مكَّة (رمضان سنة ٨ هـ):

إثر صلح الحديبية دخلت قبيلة خزاعة في حلف مع المسلمين وقبيلة بني بكر مع القريشيين، فاعتدت قبيلة بني بكر على قبيلة خزاعة وقتلت منهم عشرين رجلاً، فما كان من خزاعة إلا أن أخبرت رسول الله ﷺ بما حدث وشعرت قريش بأنها نقضت العهد وخالفت الاتفاق فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة في محاولت لتهدئة الأوضاع وتطييب الخواطر وتمديد مدة الهدنة. إلا أنه عاد من المدينة بخفي حنين ولم يخبره أحد بنية رسول الله ﷺ. ولم يكشفوا له عن عزمه وخطته بعد هذه الجريمة النكراء التي اقترفتها بنو بكر.

أراد رسول الله ﷺ أن يفاجئ المشركين في مكَّة، وأن يغزوهم وهم في عقر دارهم، حتى لا يستعدوا للقتال لأنه عليه السلام كان حريصاً على دخول مكَّة دون سفك الدماء احتراماً للبيت العتيق وحفاظاً على قداسته، فتجهز عليه السلام وأمر أصحابه بذلك واستنفر الأعراب الذين حول المدينة ولم يخبر الجموع عن وجهته، بل خص بذلك أبا بكر وبعض خاصة أصحابه وقال: **(اللَّهمَّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها)**. فقال أبو بكر: يا رسول الله أوليس بينك وبين قريش عهد؟ قال: **(نعم ولكن غدروا ونقضوا)**.

بعد خروج الجيش بمسافة أخبر الرسول ﷺ الناس أنه سائر إلى مكَّة ليتهيأوا للسفر الطويل ويعدّوا له عدّته، وفي أثناء المسير

أرسل حاطب بن أبي بلتعة وكان أحد البدريين رسالة إلى قريش يعلمهم فيها بمسير رسول الله ﷺ أعطى الكتاب لامرأة دسّته في ضفيرة شعرها فأخبر الرسول ﷺ من السماء بما صنع حاطب فبعث علياً والزبير للحاق بها وأخذ الكتاب منها. فأدركاها بمكان اسمه «روضة خاخ» وأمراها بأن تعطي لهما الكتاب فأنكرت في بداية الأمر ولما هدداها بالتفتيش ورأت جدّهما وتيقنت من عزمهما حلّت ضفائرها ودفعت إليهما الكتاب.

استفسر رسول الله ﷺ حاطباً عن صنيعه هذا وما يحمله من دلالات خطيرة قد تعرض الجيش إلى ما لا يحمد عقباه، فأصدقه الحديث وأعلمه أنه لم يفعله ارتداداً عن الدين، وحاول أن يبرر صنيعه هذا بقوله: إني امرؤ كنت ملصقاً بقريش وكنت حليفاً لهم، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال عليه السلام: **(أما وإنه قد صدقكم)** إلا أن عمر اندفع إلى رسول الله ﷺ بقوله: يا رسول دعني أضرب عنق هذا المنافق فقد خان الله ورسوله. فقال عليه السلام: **(إنه شهد بدراً وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على من شهد بدراً فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)**.

يحلل الشيخ محمَّد الغزالي موقف تسريب الخبر للمشركين قائلاً: إن حاطباً خرج عن جادة الصواب بهذا العمل، وما كان له أن يوادّ المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران وتظاهروا على العدوان وصنعوا بالمسلمين ما «حاطب» أعلم به من غيره لكن

الإنسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها. وقد استكشف النبي ﷺ خبيئة حاطب فعرف أنه لم يكذبه في اعتذاره. على أن حاطباً شفع له ماضيه الكريم فجبرت عثرته وأمر النبي ﷺ المسلمين أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه، وبهذا التقدير السمح علمنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حيناً بعد أن أصابوا أحياناً.

تجهز عشرة آلاف مقاتل من الأنصار والمهاجرين وبعض القبائل التي اعتنقت الإسلام، وسار بهم رسول الله ﷺ في اليوم العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة المباركة، ولما اقترب رسول الله ﷺ من مكَّة أمر المسلمين بأن يعسكروا وأن يشعل كل واحد منهم ناراً فاشتعلت في وقت واحد عشرة آلاف شعلة من نار حولت الليل إلى نهار لتكشف تحركات العدو ولتبعث الرعب في أهل مكَّة.

خرج أبو سفيان يستطلع الخبر، ولما اقترب من معسكر المسلمين لقيه العباس بن عبدالمطلب فعرفه وأركبه خلفه وأسرع به إلى رسول الله ليأخذ له الأمان ويدعوه إلى الإسلام فينطق بالشهادتين.

لما رأى رسول الله ﷺ أبا سفيان مقبلاً عليه تعلوه علامات الاستسلام، تكلم عليه السلام بكلام بليغ كان له الأثر الكبير في نفس أبي سفيان ليقول بعدها: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمَّد رسول الله. عندئذ أمره رسول الله ﷺ بأن يخبر قريشاً بأن محمَّداً

قد أمّنهم، ونودي في الناس: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره فأغلق عليه بابه فهو آمن» تطميناً لقلوبهم وإظهاراً لعزّة الإسلام ورحمة المسلمين.

حرص رسول الله ﷺ على أن يدخل مكّة ويفتحها بلا قتال ما أمكن، لأن خطته تتمثّل في أن يدخل المسلمون مكّة من عدة أماكن وعلى جبهات متعددة، حتى يشتت قوة العدو ويضعفها، وأمر المقاتلين بألا يبدأوا القتال إلا إذا تعرضوا إلى مقاومة. وعاد أبو سفيان ليُعلم أهل قريش أن لا سبيل إلى المقاومة، وما عليهم إلا أن يستسلموا بعد أن رأى الجيوش الجرّارة تطوّق مكّة المكرمة. ودخلت كتائب المسلمين ولم تجد مقاومة من أحد إلا الجهة التي دخل منها خالد بن الوليد فتصدّى لهم وقاتلهم.

دخل المسلمون مكّة ودخلها رسول الله ﷺ راكباً ناقته، مطأطئاً رأسه، تمس لحيته ظهر ناقته تواضعاً لله، وشكراً له على ما أنعم به من الفتح المبين. ولما وصل رسول الله ﷺ إلى البيت الحرام بدأ يطعن الأصنام بعود في يده وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]. فتهاوت الأصنام بهذه اللمسة الكريمة رغم أنها ثُبّتت وشدّت بالرصاص. وبهذا العمل يبين رسول الله ﷺ عملياً أن الأصنام لا تنفع ولا تضر، بل لا تستطيع الدفاع عن نفسها ودخل عليه السلام الكعبة وطهر مساحة البيت من كل صور الشرك.

أمر رسول الله ﷺ أن يحبس أبا سفيان ليرى جيوش المسلمين وهي تتقدم نحو مكَّة وقد دججت بالسلاح عاقدة العزم على الدخول إلى مكَّة مهما كان الثمن. قال العباس: «ومرت القبائل على رايتها كلما مرت قبيلة قال أبو سفيان: من هؤلاء يا عباس؟ فأقول سليم فيقول: ما لي ولسليم؟ ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة فيقول: ما لي ولمزينة. حتى نفذت القبائل. ما تمر قبيلة إلا ويسألني عنها فإذا أخبرته بهم قال ما لي ولبني فلان حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء وفيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد. فقال: سبحان الله يا عباس من هؤلاء؟ قال قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة. والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً. قال: قلت يا أبا سفيان إنها النبوة قال: فنعم إذن».

عاد أبو سفيان إلى قومه يصرخ: «يا معشر قريش هذا محمَّد قد جاءكم بما لا قبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن» فقامت إليه هند بنت عتبة «زوجته» فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميت الدمس الأحمس قبح من طليعة قوم. «قال: ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. «قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك». قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. ومن دخل المسجد الحرام فهو

آمن». فما كان من قريـــش إلا أن اقتحموا بيوتهـــم وأغلقوا أبوابهم عليهم وطرحوا السلاح في الطريق ليأخذه المسلمون بعد ذلك.

دخل رسول الله ﷺ الكعبة وأزال ما بها من كل صور الشرك وصلى فيها وأهـــل مكَّة ينتظـــرون حكم القائـــد المنتصر فيهم، وخرج للناس مستفســـراً: **(يا معشـــر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم)**؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال ﷺ: **(اليوم أقول لكم ما قال أخي يوسف من قبل: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء)**. فكان لهذا العفو الأثر الطيب على نفوس القريشـــيين ليدخلوا في دين الله أفواجاً وليبايعوا رســـول الله ﷺ وممن أســـلم في هذا اليـــوم: معاوية بن أبي سفيان وأبو قحافة والد الصديق.

غزوة حنين (شوال سنة ثمان للهجرة):

لما فتح الله تعالى على رســـوله والمؤمنين مكَّة المكرمة وظهر فيها الحق وزهق الباطل، ظن زعماء هوازن وثقيف أن رسول الله ﷺ سيتوجه إليهم ليقاتلهم فعزموا على بدئه بالقتال وجمعوا رجالهم وأموالهم ونســـاءهم وأولادهم وأمَّروا عليهم مالك بن عوف وســـاروا متجهين صوب مكَّـــة المكرمة. علم رسول الله بأمر أهل الطائف وما زعموا عليه فخرج إليهم معه ألفان من المسلمين الجدد الذين أسلموا يوم الفتح مع عشرة آلاف من أصحابه الكرام الذين جاؤوا معه من المدينة يريدون

تأديب هوازن وأحلافها وكسر شوكة المشركين وإبطال كيدهم.

سار رسول الله ﷺ بالجيش حتى إذا كان بوادي حنين نصب لهم المشركون كميناً وأغاروا عليهم فجأة في ظلمة الليل، فارتبك المسلمون بادئ الأمر، غير أنهم سرعان ما تماسكوا وقاتلوا الأعداء، وفرقوهم في رؤوس الجبال وثنايا الوادي، ثم اشتغل المسلمون بجمع الغنائم وفي أثناء ذلك أعاد الأعداء تنظيم صفوفهم وأشاعوا أن محمَّداً قد مات ورشقوا المسلمين حتى أربكوهم وأثرت إشاعة قتل رسول الله في المسلمين وفرَّ ضعاف الإيمان ممن أسلم حديثاً بمكة وألقى بعضهم السلاح استسلاماً للهزيمة.

ثبت رسول الله ﷺ في ميدان المعركة وهو يدعو المسلمين إلى الثبات في القتال قائلاً: **(أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب)** ثم قام العباس وكان جهوري الصوت يدعو الجند إلى القتال ويحرِّضهم عليه، فعاد المسلمون ثانية وجالدوا دون رسول الله عليه السلام، وأقبلوا على القتال كالأسود فانهزم المشركون في أرجاء الوادي ونصر الله تعالى عباده المؤمنين. ولما تفرّق المشركون منهزمين بعث رسول الله ﷺ جنود الرَّحمٰن يتعقبون فلولهم يأسرون المنهزمين، ويفرّقون جموعهم، حتى لا تعاودهم أنفسهم بالاعتداء مرة ثانية.

جمع رسول الله ﷺ سبايا حنين وأموالهم. أما الغنائم فقد فرّقها على المؤلفة قلوبهم دون الأنصار السابقين إلى دين الله

تعالى الذين خلص إيمانهم وصدقت سريرتهم وولاؤهم للإسلام. أما السبايا فقد منَّ الله عليهن بالسراح إكراماً لأخته من الرضاعة الشيماء. وبعد انتهاء المعركة نزل القرآن الكريم يضمد الجراح ويذكّر المسلمين بفضل الله تعالى عليهم وقد أيّدهم بنصره بعدما كادت الهزيمة تلحق بهم: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥، ٢٦].

الرسول يردّ السبايا إلى أهلها:

ما كاد يصل الرسول ﷺ إلى الجعرانة بعد انسحابه من الطائف دون فتحها حتى أقبل عليه وفد هوازن يستعطفونه معلنين الولاء والإسلام، جلسوا إليه عليه السلام يستدرون عطفه ويلتمسون رحمته وحلمه. جاءته هوازن مكسورة الجناح، قد نزلت بها البلايا من كل جانب، قُتِل رجالها، وأُسِر فرسانها وغُنِمت أموالها وسُبِيت نساؤها وذراريها، وقد بلغوا من الذل مبلغه، فلا بد من لفتة كريمة ترد لهم الاعتبار ومن يد سخية تداوي جراحهم خاصة بعد أن أعلنوا إسلامهم وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ منقادين طائعين.

لم يكن الرسول عليه السلام جباراً في أصحابه فيأخذ منهم ما يملكون قسراً خاصة بعد تقسيم الغنائم، ولم يكن في الوقت نفسه غليظ

القلب فيتجاهل أولئك الذين جاؤوا مكسوري الخاطر مهيضي الجناح، لكنه بما آتاه الله تعالى من حكمة استطاع أن يقنع أصحابه بردّ النساء والأولاد إلى أهليهم دون أن يترك من وراء ذلك جرحاً ينزف أو قلباً يحقد: خطب ﷺ في أصحابه: **(أما بعد، فإن إخوانكم هؤلاء قد جاؤوا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب أن يطيب بذلك فليفعل ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مال يفي الله به علينا فليفعل)** ثم قال: **(ما كان لي ولبني عبدالمطلب فهو لكم)** إشارة إلى وفد هوازن فكان بذلك قد بيَّن لأصحابه ليسارعوا إلى الاستجابة لمطلبه.

ومن تمام برّه عليه الصلاة والسلام أن يسأل عن زعيم ثقيف مالك بن عوف، ويمنحه فرصة اللحاق به وإعلان إسلامه قال ﷺ: **(أخبروه أنه إن أتاني مسلماً رددت إليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل)**. فلما علم مالك بالخبر رغب في اللحاق برسول الله ﷺ في غفلة من ثقيف خشية أن تمنعه إذا علمت بالأمر ولحق بالرسول عليه الصلاة والسلام وأعلن إسلامه، فرد إليه الرسول أهله وأعطاه ما وعده، ورد له اعتباره بين قومه فاستعمله على من أسلم منهم فكان يقاتل بهم ثقيفاً لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه حتى ضيَّق عليهم وجاؤوه بعد أشهر مسلمين.

سنة الوفود:

عزّز فتح مكّة الإسلام، وكان له الأثر البالغ في دخول الناس

في ديـــن الله أفواجاً، وصـــارت الوفـــود تقصـــد المدينة لإعلان إســـلامها، فقوي جيش المســـلمين وارتفع عدده من عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح إلـــى ثلاثين ألف مقاتل في تبوك وبلغ في حجة الوداع مائة ألف رجل. وقد وفد على رسول الله ﷺ أكثر من سبعين وفداً يعلنون إسلامهم عن طواعية ويعرضون أنفسهم على رسول الله جنوداً أوفياء لدين الله مســـتعدين للدفاع عنه والخروج للدعوة في سبيله.

وفد عبد قيس أتى النبـــي ﷺ فقال عليه السلام: **(مرحباً بالوفد غير خزايا ولا ندمى)** وســـألوه عـــن الإيمان والأشـــربة فأجابهم بأن الإيمان شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمَّداً رسول الله، ونهاهم عن الأشربة المنتشرة بينهم.

وفد طيء: ورئيســـهم زيد الخيل، وقد قال الرسول في حقه: **(ما ذكر لي رجل مـــن العرب إلا رأيته دون ما قيـــل فيه إلا زيد الخيل)** وسماه النبي ﷺ زيد الخير.

وفـــد كنـــدة وعليـــه الأشـــعث بن قيس وقـــد تـــلا عليهم الرسول عليه السلام آيات من سورة الصافات فأسلموا.

وفد همدان وفيه مالك بن نمط وكان شاعراً فحلف:

بـــأن رســـــول الله فـــينـــا مـــصـــدق
رســـول أتى من عند ذي العرش مهتد

فأمَّره النبي ﷺ في قومه وقال في حقهم: **(نعم الحي همدان ما أسرعها إلى النصر وما أصبرها على الجهد)**.

ـ وفد تجيب، وهو قبيلة من كندة في ثلاثة عشر رجلاً ومعهم صدقات أموالهم فأكرمهم الرسول ﷺ وسألوه عن القرآن فأجابهم، وودعهم لما أرادوا الرجوع إلى قومهم.

ـ وفد ثعلبة، جاء في أربعة رجال مقرّين بالإسلام وسألوا: أصحيح أنه لا إسلام لمن لا هجرة له؟ فقال عليه السلام: **(حيثما كنتم واتقيتم الله فلا يضركم)**.

ـ وفد بني سعد من قضاعة: فقد جاء النعمان في نفر من قومه فنزلوا المدينة وأسلموا بالمسجد وبايعوا رسول الله.

ـ وفد بني فزارة، أقرّوا بالإسلام وأجدبت بلادهم فدعا لهم الرسول ﷺ فأغاثهم الله بالمطر الغزير.

ـ وفد بني عذرة والقبائل اليمنية وقد أمرهم النبي ﷺ بالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وحسن الجوار.

ـ وفد ثقيف، وقد كان عروة بن مسعود الثقفي أسلم ودعا قومه فرموه بالنبل حتى مات ثم ندموا وأرسلوا نفراً منهم فلما جاؤوا رسول الله أسمعهم القرآن فاشترطوا أن يسمح لهم الرسول في الزنا والربا وشرب الخمر ويترك لهم اللات، فرفض النبي طلبهم ثم أسلموا وأرسل خالد بن الوليد لهدم اللات.

ـ وفد بني حنيفة: وقد أسلموا وفيهم مسيلمة الذي اشترط أن يجعل له النبي شيئاً ليتبعه.

غزوة تبوك (رجب السنة التاسعة للهجرة):

بعد سنة من غزوة مؤتة أخذ قيصر الروم يعدّ جيشه لجولة فاصلة مع المسلمين الذي رأى أن خطرهم بدأ يستفحل، وبدأت الأنباء ترد إلى المدينة عن تجمع جيش الروم والعرب الخاضعين لهم من الغساسنة للزحف على بلاد المسلمين، كان ذلك أثناء الصيف، والطقس شديد الحرارة يغلب على الأرض الجدب في الوقت الذي طابت فيه بعض الثمار واستلذ الناس الجلوس تحت ظلال العرائش والاستكانة إلى الراحة. وفي هذه الأثناء أكد التجار القادمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل أعدَّ جيشاً قوامه أربعون ألف رجل فيه من المتنصرين العرب وقد عيّن أحد عظماء الروم قائداً له.

قرّر الرسول ﷺ مباغتة الروم رغم وعورة الطريق وبُعد المسافة وصعوبة الظروف، رغم ذلك كله أمر الرسول أصحابه بالتجهز. وكان من عادته عليه السلام إذا خرج إلى غزوة أن يكني عنها ويخبر إنه يريد غير الوجه الذي يتجه إليه إلا غزوة تبوك فإنه منذ البداية بيّنها للناس بوضوح وذلك لبُعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو وليأخذ كل واحد أهبته، فاستجاب الصحابة من الأنصار والمهاجرين وقد انتصروا على المثبطات والمحبطات فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧].

بدأ الصحابة في الاستعداد وإن كان التجهيز ناقصاً في الزاد، والمراكب. البعير الواحد يتعاقب عليه ثمانية عشر صحابياً وقد تولى عثمان بن عفان تجهيز ثلث جيش العسرة، وجاء بعض الصحابة إلى الرسول يرغبون في الخروج فعجز النبي عن حملهم فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حسرة على عدم القدرة على الخروج للجهاد مع الرسول ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢].

وجاء من الأعراب من يعتذر لرسول الله لكن الله لم يعذرهم وقام المنافقون بحملة تثبيط يخذّلون الناس عن الخروج بدعوى شدة الحر فرد عليهم الوحي: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١] وبدعوى الخوف من فتنة نساء الروم فرد عليهم القرآن: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] وأبطأت النية ببعض المسلمين فتخلفوا عن رسول الله ﷺ دون ارتياب منهم بوجوب الجهاد معه وكانوا نفر صدق وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية كما تأخر أبو خيثمة لكنه لحق بالجيش كما أصيب بعير أبي ذر ولحق بعد ذلك بالجيش.

كان رسول الله ﷺ قد قرر السير فانطلق في حر شديد ونزل منزلاً أصاب الجيش فيه عطش شديد، فدعا عليه السلام ربه فأغاثه وملأ الناس ما معهم من أوانٍ كما أجهدهم الجوع حتى أكلوا أوراق الشجر، وواصل المسلمون السير إلى أن بلغوا مشارف تبوك فعسكروا بها واستعدوا للقاء العدو، وخطب النبي ﷺ في أصحابه فبشّر وأنذر وجبر النقص ورفع المعنويات وحض على خيري الدنيا والآخرة. أما الروم وحلفاؤهم لما سمعوا بجيش المسلمين أخذهم الرعب فانهزموا فارين وتفرقوا داخل حدودهم ولم يقدروا على المواجهة.

أقام النبي ﷺ في تبوك عشرين يوماً يقصر الصلاة ولم يلق حرباً، فازدادت سمعته العسكرية شهرة واتساعاً، وحقّق مكاسب سياسية كبيرة دون أن يصطدم بجيش الروم. وجاء إلى النبي الكريم أصحاب أيلة وجرباء وأذرح فصالحهم وأعطوه الجزية. وأرسل خالد بن الوليد إلى دومة الجندل، فأخذ ملِكها إلى النبي عليه السلام فحقن دمه وصالحه فأقر بالجزية، وانقلبت القبائل الحليفة من موالاة الروم إلى موالية للمسلمين. وكان عليه السلام طيلة الغزوة يجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء، وقد استغرقت الغزوة خمسين يوماً وسميت غزوة العسرة بوحي من السماء: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

قفل النبي ﷺ راجعاً إلى المدينة مظفراً لم ينل كيداً وقبل وصوله إلى المدينة تسامع الناس بمقدمه ولما وصل خرج

الصبيان والنساء والولائد يستقبلون الجيش بحفاوة بالغة، وجاء المخلفون يقدمون الأعذار ويحلفون فاستغفر لهم الرسول ووكل أمرهم إلى الله أما الثلاثة الذين صدّقوه فقد أمر الرسول صحابته أن يهجروهم إلى أن يقضي الله في أمرهم فنزل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

أما الأعراب الذين تخلفوا عن القتال ثم جاؤوا يعتذرون ويقدمون أعذارهم للرسول ﷺ، فهذا أقعده مرض ألمَّ به، وهذا تزوج حديثاً، وآخر لم يستعد للقتال، وهكذا فجاء الجواب الحاسم من الله تعالى في قوله العزيز: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦] وقد كشف الله المنافقين إثر هذه الغزوة ونهى نبيّه عن قبول صدقاتهم وعن الصلاة عليهم والاستغفار لهم، وأمره أن يهدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون واتخذوه وكراً لمؤامراتهم على الرسول ودعوته. وكانت تبوك آخر غزوات الرسول صلوات الله عليه وسلامه.

بعوث النبي ﷺ وسراياه:

بعث عبيدة بن الحارث:

بعث رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن

عبد مناف في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، فسار حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة، فلقي بها جمعاً عظيماً من قريش، فلم يكن بينهم قتال إلا أن سعد بن أبي وقاص رُمِي يومئذ بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام، ثم انصرف القوم عن القوم وللمسلمين حامية، وفرَّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان، وكانا مسلمين ولكنهما خرجا مع الكفار، اتخذوه وسيلة للوصول إلى المسلمين وكانت راية عبيدة أول راية عقدت في الإسلام.

سرية سعد بن أبي وقاص، إلى الخرار في ذي القعدة على رأس تسعة أشهر، عقد له لواء أبيض حمله المقداد بن عمرو، وبعثه في عشرين من المهاجرين وبين الخرار والأبواء ستة أميال.

سرية عمير بن عديّ:

سرية عمير بن عدي بن خرشة الخطمي، حيّ من الأوس كانوا يسكنون بعوالي المدينة، إلى عصماء بنت مروان من بني أمية بن زيد لخمس ليالٍ بقين من شهر رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من مُهاجر رسول الله ﷺ، وكانت عصماء عند يزيد بن زيد بن حصن الخطمي وكانت تعيب الإسلام وتؤذي النبي ﷺ وتُحرِّضُ عليه وتقول الشعر، فجاءها عمير بن عدي في الليل حتى دخل عليها بيتها وحولها نفر من ولدها نيام، منهم من

ترضعه في صدرها فجسَّـها بيـده، وكان ضريـر البصر، ونحى الصبي عنها ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها، ثم صلى الصبح مع النبي ﷺ بالمدينة فقال له رسول الله ﷺ: **(أقتلت ابنة مروان؟)** قال: نعم، فهل عليَّ في ذلك من شـيء؟ فقال: «لا ينتطح فيهـا عنـزان» فكانت هـذه الكلمة أول ما سـمعت من رسول الله ﷺ وسمى رسول الله ﷺ عميراً بصيراً، وقيل: وكان أول من أسـلم من خطمة عمير بن عدي، وكان يُدعـى القارئ، كان أسلم قومه وقارئهم.

سرية سالم بن عمير:

سرية سـالم بن عمير إلى أبي عفك اليهودي في شوال على رأس عشرين شهراً من مهاجر رسول الله ﷺ، وكان أبو عفك من بني عمرو بن عَوفًا شـيخاً كبير قد بلغ عشرين ومائة سنة، وكان يهوديـاً، وكان يحرض على رسـول الله ﷺ ويقول الشـعر، فقال سـالم بن عمير وهو أحد البكائين وممن شهد بدراً: عليَّ نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه. فأمهـل يطلب له غرّة، حتى كانت ليلة صائفة فنام أبو عفك بالفناء، وسمع به سالم بن عُمير، فأقبل فوضع السـيف على كبده ثم اعتمد عليه حتى خش في الفراش، وصاح عدوّ الله فثاب إليه ناس ممن هم على قوله فأدخلوه منزله وقبروه. وشـهد سـالم بدراً وأُحُداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ.

سرية سلمة بن عبد الأسد:

بلغ رسول الله ﷺ أن طليحة وسلمة ابني خويلد قد سارا في قومهما ومن أطاعهما يدعونهم إلى حرب رسول الله، فدعا عليه السلام أبا سلمة وعقد له لواء وبعث معه مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وقال: **(سر حتى تنزل أرض بني أسد فأغر عليهم قبل أن تلاقى عليك جموعهم)** فخرج، فأعدَّ السير، ونكب عن سنن الطريق، وسبق الأخبار وانتهى إلى أدنى قَطَن فأغار على سرح لهم فصمَّه وأخذ رعاءً لهم مماليك ثلاثة، وأفلت سائرهم، فجاؤوا جميعهم فحذروهم فتفرقوا في كل ناحية، ففرق أبو سلمة أصحابه ثلاث فرق في طلب النعم والشاء، فآبوا إليه سالمين، وقد أصابوا إبلاً وشاءً، ولم يلقوا أحداً، فانحدر أبو سلمة بذلك كله إلى المدينة».

سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك:

قرية بينها وبين المدينة ستة ليال، وفي الصحاح، وفدك قرية بخيبر، لما بلغه ﷺ أن لبني سعد جمعاً يريدون أن يمدوا يهود خيبر، بعث إليهم علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه في مائة رجل، فسار الليل وكمن النهار إلى أن نزلوا محلاً بين خيبر وفدك، فوجدوا به رجلاً فسألوه عن القوم؟ فقال: لا علم لي، فشدوا عليه فأقر أنه عين لهم وقال: أخبركم على أن تؤمنوني؟ فأمنوه فدلهم، فأغاروا عليهم وأخذوا خمسمائة بعير

وألفي شـــاة، وهربت بنو ســـعد بالظعـــن، فعزل علـــيّ لقوحاً لرسول الله ﷺ تدعى الحَفِدَة وعزل الخمس، وقسم الباقي على أصحابـــه، وكان ذلك عنـــد محاصرة المســـلمين لخيبر أو عند الاستعداد لذلك.

سرية عمر بن الخطاب إلى طائفة من هوازن:

بعث رســـول الله ﷺ عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلاً إلى عَجُز، محل بينه وبين مكَّة أربع ليال بطريق صنعاء، يقال له تُرَبَة وأرسل ﷺ دليلاً من بني هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر لهوازن فهربوا، فجـــاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه محالهم فلم يجد منهم أحـــداً، فانصرف راجعـــاً إلى المدينـــة، فلمّا كان بمحل بينه وبين المدينة ستة أميال: قال له الدليل: هل لك جمع آخر من خثعم، فقال له عمر: لم يأمرني رســـول الله ﷺ بهم إنما أمرني بقتال هوازن.

حجّة الوداع:

في الخامس والعشـــرين من ذي القعدة من الســـنة العاشـــرة للهجرة، ســـار النبي ﷺ إلى مكَّة لأداء فريضة الحج وأخذ نساءه جميعاً معه، ورافقه جمع غفير من الناس يصل إلى تسعين ألف. ولما بلغ ذي الحليفة نزل وأقام بها ليلة ولما أصبح أحرم بالحج ولبَّـــى قائلاً: **(لبيك اللَّهـــمَّ لبيك، لبيك لا شـــريك لك لبيك، إن**

الحمد والنعمة لك والمُلك لا شـريك لك» واتجه ومن معه إلى مكَّة المكرمة وهـو يكرّر التلبية بين الحيـن والآخر حتى وصل المسجد الحرام ولما رأى البيت العتيق قال: «اللهم زد بيتك هذا شرفاً وتعظيماً وبرًّا وتكريماً).

طاف الرسول ﷺ بالبيت سبعة أشواط واستلم الركنين ركن الحجر الأسـود والركـن اليماني وصلـى ركعتيـن عند مقام إبراهيم عليه السلام ثم شرب من زمزم وسعى بين الصفا والمروة سبعاً راكباً علـى راحلته وفي الثامن مـن ذي الحجة توجه عليه السلام إلى منى، وبعد شروق شمس اليوم التاسع توجه إلى عرفة للوقوف بها، وبعد أن أدى صلاة الظهر والعصر جمعاً وقصراً خطب في الناس خطبته الشـريفة بين الناس دعاهم إلى تقوى الله ونبذ ما تبقى من مآثر الجاهلية وأخبرهم أن الشرك ولّى وليس له مكان في أرض العرب ودعاهم إلى الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله.

خطبة الوداع:

(الحمد لله نحمده ونسـتعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ به من شرور أنفسـنا ومن سـيئات أعمالنا. من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمَّداً عبده ورسـوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكـم على طاعته، وأسـتفتح بالذي هو خير: أمـا بعد، أيها الناس اسـمعوا مني أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد

عامي هذا في موقفي هـــذا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت؟ اللهم فاشـــهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

أيها الناس إن الشـــيطان قد يئس أن يُعبد فـــي أرضكم هذه، ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت اللَّهمَّ اشهد، فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني تركـــت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده، كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللَّهمَّ اشهد.

أيها النـــاس، إن ربكم واحد، وإن أباكـــم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى.

ألا هـــل بلغت؟ اللَّهمَّ اشـــهد. فليبلغ الشـــاهد منكم الغائب والسلام عليكم ورحمة الله).

واصـــل رســـول الله ﷺ أداء الفريضة يعلم الناس مناســـكهم فاتجه إلى المزدلفة ليجمع فيها بين المغرب والعشاء قصراً جمع تأخير، وبعد المبيت بهـــا غادرها بعد صلاة الفجـــر قاصداً منى لرمي الجمرات، ثم إلى مكَّـــة للقيام بطواف الإفاضة، ثم التحلل الأكبر، وبعد الإقامة بمكة عشـــرة أيام قفل رســـول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة ولما أشـــرف عليها كبّر وقال: (لا إلٰـــه إلا الله وحده

لا شـــريك له، له المُلك ولـــه الحمد وهو على كل شـــيء قدير. آيبون تائبون عابدون ســـاجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، نصر عبده وهزم الأحزاب وحده).

مرض الرسول ووفاته:

يتعرض رســـول الله ﷺ للآلام والأوجاع مثلمـــا يتعرض إليه ســـائر الناس، وذات مرة خـــرج عليه السلام إلى مقبرة البقيع ليســـتغفر للموتى وعند انصرافه منها أحس بأوجاع وآلام وصداع في رأسه، فعاد إلى عائشة رضي الله عنها ليخبرها بذلك، وتواصلت معه الأوجاع وهو يدور على نسائه، فاشتد به ألمه في بيت ميمونة رضي الله عنها فدعا نساءه واستأذنهن أن يُمَرض في بيت عائشة فأُذن له، ولما دخل الحجرة اشتد به الوجع وشعر بحمى شديدة يحس بها من يضع يده على ثيابه وللتخفيف من حدتها وقوة حرارتها قال: **(أريقوا عليَّ ســـبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم).**

قالت عائشـــة: فأقعدناه في مخضب «إناء» لحفصة بنت عمر ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: **(حســـبكم حسبكم)** بمعنى شكراً لكنّ قد فعلتن، وخرج عليه السلام عاصباً رأسه وجلس على المنبر وقال: **(إن عبـــداً من عباد الله خيَّره الله بيـــن الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله)** ففهم أبو بكر المقصود وعرف أن رسول الله ﷺ يشـــير إلى نفســـه فبكى وقال: «بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا» وعاد إلى بيت عائشـــة ولما تعذر عليه الخروج إلى الصلاة قال:

(مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس) فقالت عائشة: يا نبي الله إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن. قال عليه السلام: **(مروه فليصلِّ بالناس)** فعادت عائشة إلى قولها الأول تكرره فقال عليه السلام: **(إنكن صواحب يوسف مروه فليصلِّ بالناس)**.

وذات يوم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس وهم يصلون الصبح ووقف على باب الحجرة المطل على المسجد فتفطن إليه المسلمون وكادوا يفتتنون في صلاتهم برسول الله حين رأوه فرحاً به، وأراد أبو بكر إمام الجماعة أن يتأخر ليترك المجال إلى رسول الله إلا أنه أشار إليه وإلى كافة المصلين بأن يثبتوا على صلاتهم وتبسم سروراً لما رأى من هيئتهم في الصلاة.

قال أنس بن مالك: «ما رأيت رسول الله أحسن هيئة من تلك الساعة» وصلى عليه السلام على يمين أبي بكر قاعداً ولما فرغ من الصلاة أقبل على الناس وكلمهم رافعاً صوته حتى خرج صوته من المسجد فخرج أبو بكر وقال: إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب.

استأذن أبو بكر رسول الله بعد الاطمئنان عليه كي يذهب إلى السنح وهو مكان غير بعيد له فيه مال وأهل فأذن له ورجع عليه السلام إلى حجرته ببيت عائشة ولم يمض وقت طويل حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى صلوات الله عليه وسلامه. قالت عائشة تصف الوفاة: ووجدت رسول الله يثقل في حجري فذهبت أنظر إلى وجهه فإذا بصره قد شخص وهو يقول: **(بل الرفيق الأعلى من**

الجنة) فقلت: خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق، وصدق الحق تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

كان وقع وفاة رسول الله ﷺ شديداً على المسلمين، وأثره عميقاً في نفوسهم، ومن هول المفاجأة أنكر عمر موت الرسول وتوعد بسيفه كل من يزعم أن محمَّداً قد مات، وبلغ الخبر أبا بكر فعاد من السنح ونزل على باب المسجد وعمر يكلم الناس فلم يلتفت إلى أحد بل دخل مباشرة إلى بيت عائشة ليلقي النظرة الأخيرة على رسول الله، فأقبل عليه وكشف عن وجهه وقبَّله وقال: صلوات الله عليك يا رسول الله ما أطيبك حياً وميتاً. وخرج رضي الله عنه للناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: من كان يعبد محمَّداً فإن محمَّداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. وتلا: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

تيقن عمر ومن معه من الناس من وفاة الرسول عليه السلام ووقع عمر على الأرض من شدة الصدمة واستغفر ربه وقال: وكأني لم أتل هذه الآية قط.

توفي عليه السلام يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة وقد ناهز ثلاثة وستين سنة ولم يُدفن إلا ليلة الأربعاء بعد اختيار المسلمين خليفة لرسول الله وتولى غسله علي بن أبي طالب يساعده عمه العباس وابناه الفضل وقثم وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول الله ﷺ. وكفِّن في ثلاثة أثواب

ليس فيها قميص ولا عمامة ودُفن عليه السلام في بيت عائشة وأنزله إلى قبره علي والعباس ورش بلال قبره ورفع على الأرض شبراً.

وفاته ﷺ مصيبة الأولين والآخرين:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: ما نفضنا الأيدي من دفن رسول الله ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا، قال بعضهم: وأظلمت الدنيا حتى لم ينظر بعضنا إلى بعض، وكان أحدنا يبسط يده فلا يراها.

قال عليه الصلاة والسلام: **(أنا فرط لأمتي لن يصابوا بمثلي)** وفي مسلم أنه ﷺ قال: **(إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بأمة خيراً قبض نبيها قبلها، فجعله بها فرطاً وسلفاً بين يديها)** فيا له من خطب جل عن الخطوب، ومصاب علم دمع العيون كيف يصوب، وطارق هجم هجوم الليالي، وحادث هدّ كل القوى والحيل.

شق على فاطمة أن يُحثَ على جسد رسول الله ﷺ التراب فقالت لأنس: يا أنس كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟ وفي رواية أنها قالت لعلي كرّم الله وجهه: يا أبا الحسن دفنتم رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، قالت: كيف طابت قلوبكم أن تحثوا التراب عليه؟ كان نبي الرحمة، قال: نعم، ولكن لا رادَّ لأمر الله، وأنشد الشاعر:

ألا يا ضريحاً ضم نفسًا زكية
عليك سلام الله في القرب والبعد

عليــك ســلام الله ومــا هبــت الصبا
وما نــاح قمــري علــى البــان والرند
ومــا ســجعت ورق وغنــت حمامــة
وما اشــتاق ذو وجد إلى ساكني نجد
وما لي ســوى حبــي لكــم آل محمَّد
أمــرّغ من شــوقي علــى بابكم خدي

صفته ﷺ وشمائله:

كان رسول الله ﷺ أبيض مشرباً بحمرة واسع الجبين، حسن الجســم، عظيم الجبهة، دقيق الحاجبين مقرونهما، كانت الفرجة بين حاجبيه يســيرة لا تبين إلا لمن دقق النظر، أهدب الأشــفار أدعج العينين، وعن أبي هريرة: أكحل العينين أقنى الأنف، واضح الخدين ليس فيهما نتوء ولا ارتفاع، كث اللحية أســودها، واسع الفم من غيــر إفــراط، والعرب تتمدح لــه لدلالة الســعة على الفصاحة، مفلج الثنايا (متفرقهما) قوي الأسنان، ضخم الكراديس (أي رؤوس العظام)، غليظ الكتفين واسعها ناعمهما، شثن الكفين والقدمين ـ أي: غليظهما ـ، بين كتفيه خاتم النبوة، واسع الصدر، سهل البطن، غليظ القدمين، أشــعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر. لم يكن بالطويل ولا القصير وهو إلى الطول أقرب. شديد سواد الشعر، إذا التفت التفت جميعاً.

كان عليه الصلاة والســلام نقي الثوب ليّن الكلام، حســن

الصوت قويّه، لا يقول هجراً، ولا ينطق هذراً، يخاطب كل إنسان على قدر عقله، يكلم كل قبيلة بما تعرفه، واسع الاطلاع بلغات العرب، إذا فرح غض طرفه، ما رؤي ضاحكاً إنما كان يبتسم وكان الضحك منه نادراً ولم يقهقه.

ما تثاءب قط، ليس بمستخي البدن، سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عيّاب ولا مزاح، وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً. يقابل السيئة بالحسنة، يصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمّن ظلمه. لا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق والمسألة، لا يقطع على أحد حديثه، ولا يتكلم في غير حاجة.

كان ﷺ يعظم النعمة وإن دقت، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، وإنما يغضب إذا تعرض للحق بشيء، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم، ويتفقد أصحابه ويسأل عنهم، فمن كان منهم غائباً دعا له ومن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس تواضعاً. من جالسه أو نادمه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه. من سأله حاجة لم يردّه إلا بها. عنده الناس في الحق سواء. مجلسه مجلس حلم وحياء لا ترفع فيه الأصوات ولا يتنازعون عنده الحديث. إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، وقد قال ﷺ: **(إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق)** وكان أشد الناس خشية وخوفاً من الله تعالى.

كان صلوات الله عليه وسلامه حليماً رفيقاً، ما ضرب بيده الشريفة امرأة ولا خادماً من أهله، حلمه يسبق غضبه، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. أسخى الناس كفاً وأشدهم حياء، يحب الفأل الحسن ويغيّر الاسم القبيح بالحسن، يشاور أصحابه في الأمر، وكان إذا كره شيئاً عُرف في وجهه ولم يُشافِه أحداً بمكروه، يمازح صبيان أصحابه ويجلسهم في حجره فيقبلهم ويلتزمهم. يشهد الجنائز ويقبل عذر المعتذر، ويمشي مع الأرملة والمسكين والضعيف في حوائجهم، يبدأ أصحابه بالمصافحة وما صافح أحداً بيده فيرسل يده ﷺ حتى يكون الآخر هو الذي يرسلها. ولم يُر قط ماداً رجليه بين أصحابه. كان يجلس على الأرض والحصير والبساط من تواضعه ﷺ.

كان ﷺ يكرم من يدخل عليه وربما بسط له رداءه وآثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه إن أبى. يدعو أصحابه بأحب أسمائهم ويكنيهم، ولا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حالته فإذا فرغ عاد إلى صلاته. وكان يحب السواك ويكتحل بالإثمد عند النوم. كان غالباً ما يلبس هو وأصحابه ما نسج من القطن وربما لبسوا ما نسج من الصوف والكتان. يحب الطيب ويأمر به. كان يأكل على السفرة وربما وضع طعامه على الأرض. ولا يجمع في بطنه بين طعامين. إن أكل لحماً لم يزد عليه، وإن أكل تمراً لم يزد عليه، وأن أكل خبزاً لم يزد عليه.

كان ﷺ أفصح الناس، أعذبهم كلاماً وأسرعهم أداء وأحلاهم منطقاً، حتى إن كلامه يأخذ بالقلوب ويسبي الأرواح. كان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين يَعُدّه العاد، ليس بهذر مسرع لا يحفظ ولا متقطع تخلله السكتات بين أفراد الكلام.

لم يكن ﷺ يفجأ أهله عند دخوله إلى المنزل يتخونهم، ولكن كان يدخل على أهله على علم منهم بدخوله، وكان يسلم عليهم. وكان إذا دخل بدأ بالسؤال عنهم، وربما قال: **(هل عندكم من غداء)** وربما سكت حتى يحضر بين يديه ما تيسر. وكان إذا دخل على أهله بالليل يسلم تسليماً لا يوقظ النائم ويسمع اليقظان، وإذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: **(السلام عليكم)**.

يقول مستر بوسورث سميث مؤلف كتاب «محمَّد والإسلام» وهو مسيحي: «إن المعجزة الخالدة التي ادعاها هي القرآن، والحقيقة أنها لكذلك، وإذا قدرنا ظروف العصر الذي عاش فيه واحترام اتباعه له احتراماً لا حدَّ له، ولو وازنّاه بآباء الكنيسة أو بقديسي القرون الوسطى لتَبيّن لنا أن أعظم ما هو معجزة في محمَّد «رسول الله» أنه لم يدّع القدرة على الإتيان بالمعجزات، وما قال شيئاً إلا فعله وشاهده منه في الحال أتباعه. ولم ينسب إليه الصحابة معجزات لم يأتها أو أنكر صدورها منه. فأي برهان على إخلاصه أقطع من ذلك؟ وقد كان محمَّد يدّعي إلى آخر حياته كما ادعى من مبدأ أمره أنه رسول الله حقاً. وإني أعتقد أن

الفلسفة العالمية والمسيحية الصادقة ستعترف له بذلك يوماً من الأيام.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أشار الله تعالى إليه عليه الصلاة والسلام بالمرسل وهو نبي أوحى إليه ربه بالكتاب المبين وأمره بتبليغه. وهذا الرسول ليس منكراً عند الناس فهو من جسد وروح من جنس البشر وإنما امتاز عنهم بالرسالة واختصه بخصائص مودعة في شخصه، إذ بها أهّله الله تعالى لأن يكون أهلاً لأمانته وهذه منّة من الله تعالى لعباده إذ يقول: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]؛ أي: من جنسهم عرباً وعجماً، أزكى الناس عنصراً وأكثرهم عبادة وتقوى ومعرفة بالله تعالى. وأطهرهم وأنزههم عن القبائح عنصراً وخلقاً. فقد عصمه المولى ﷻ من دنس الموبقات. أرجح الناس عقلاً، ولما شق الملكان صدره قال أحدهما للآخر: زِنه بعشرة إلى أن قال: لو وزنته بجميع أهل الأرض رجح وزنه ﷺ.

كان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس حلماً، والحلم قوة توجب الصبر على الأذى، وهو ضبط النفس عن هيجان الغضب، وقيل: الحكيم من عفا بعد ما ستر، وقيل: من لا يعجل الانتقام، إن عزم عليه فهو حقود وإن عزم على عدمه فهو عفو غفور وهذه صفاته عليه السلام.

كما كان عليه السلام أوفر الناس علماً وفهماً وهو أعلم الناس وأحذقهم وكان أقواهم يقيناً؛ أي: أشد الناس يقيناً بربه لا يدخله

ريب ولا يتسرب إليه شك وأشدهم عزماً على إمضاء أمر الله فقد قال عليه السلام لعمّه: **(والله ـ يا عم ـ لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الدين ما تركته حتى يظهره الله تعالى أو أهلك دونه)** كان عليه السلام بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً صلوات الله عليه وسلامه.

منح الله رسوله صلى الله عليه وآله من محاسن الصفات ما لم يمنحه لأحد من قبله ولا بعده. فقد ورد في وصفه عليه السلام أن من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه. ويقول ناعتهُ: لم أر قبله ولا بعده مثله، كان قمة في كمال الخُلق وجمال الخَلق.

قالت أم معبد الخزاعية تصف النبي صلى الله عليه وآله لزوجها لما مرّ بخيمتها مهاجراً: «كان ظاهر الوضاءة، أبلج الوجه، حسن الخلق، وسيماً قسيماً، في عينيه دعج.. أحور أقرن، شديد سواد الشعر. إذا صمت علاه الوقار، وإذا تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأجلاهم من قريب، حلو المنطلق».

كان عليه الصلاة والسلام يتصف بالحلم والعفو والقدوة والصبر، والجود والسخاء، فكان أجود من الريح المرسلة، كما كان يتحلى بالسماحة والإباء والشجاعة والحياء. فهو أشد حياء من العذراء في خدرها، وكان المثل الأعلى في الأدب. قال عليه السلام: **(أدبني ربي فأحسن تأديبي)** كان ليِّن الجانب، حسن العشرة، متواضعاً رغم علو مكانة النبوّة، أميناً عفيفاً، صادقاً وقوراً، قد

جمع مكارم الأخلاق، وهو القدوة في الوفاء وصلة الرحم والتقوى والمروءة والبشر والزهد والعمل والإخلاص.

فرحم الله عبداً تأمل في هذه الشمائل والخصال فتمسك بها وتجمّل بجمالها.

شجاعة الرسول ﷺ وصبره:

عن علي كرّم الله وجهه، قال: كنا إذا احمر البأس ولقيَ القوم القومَ اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدوّ منه.

وعن سعد بن عياض الثُّمَالي وهو تابعي ثقة، قال: كان رسول الله ﷺ. قليل الكلام، قليل الحديث، فلما أُمر بالقتال تشمّر، وكان من أشد الناس بأساً.

وعن البراء رضي الله عنه: قال: كنا والله إذا احمرّ البأس نتقي به، يعني النبي ﷺ، وإن الشجاع منا الذي يحاذي به.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ من أشجع الناس وأسمح الناس.

فصاحة رسول الله ﷺ وبلاغته:

كان رسول الله ﷺ أفصح خلق الله تعالى لساناً، وأوضحهم بياناً، أوتي جوامع الكلم وبدائع الحكم، وقوارع الزجر، وقواطع الأمر، والقضايا المحكمة، والوصايا المبرمة، والمواعظ البالغة، والحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة، وقد

تحدث عن نفسه فقال: (أنا محمَّد النبي الأُمّي ـ قالها ثلاثاً ـ ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه). رواه أحمد في المسند.

كان ﷺ فصيحاً، قد أتاه الله تعالى لساناً جامعاً للمعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة. قال ﷺ وهو على المنبر: **(يا أيها الناس قد أعطيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لي اختصاراً)** وسأله عمر رضي الله عنه عن سرّ فصاحته بقوله: يا نبي الله مالك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال ﷺ: **(كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءني بها جبريل فحفظتها)** وقد أجمع الناس على أن محمَّداً الأُمّي قد أُوتي من الأسلوب السهل المعجز ما لم يؤت معلّم ولا متعلّم ممن دانت لهم العربية وملكوا زمامها.

كان كلامه ﷺ بيِّناً لا فضول فيه ولا تقصير يحفظه من جلس إليه. تقول عائشة: «ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه» وروي عنها أيضاً: أنه كان يحدث حديثاً لوْ عَدَّهُ العادُّ لأحصاه، ويقول أنس: «كان إذا تكلم بكلمة ردّها ثلاثاً» وقال له أصحابه: ما رأينا أفصح منك، فقال: **(إن الله لم يجعلني لحَّاناً اختار لي خير الكلام كتابه القرآن)** وكان يمدح الفصاحة ويكره اللحن، ولذلك لما سأله العباس: ما الجمال؟ قال: **(اللسان)**، وفي رواية أنه سأله ما الجمال في الرجل، فقال: **(فصاحة اللسان)**، وقال: **(رحم الله امرأً أصلح من لسانه)**.

من كمال فصاحته ﷺ أنه كان يخاطب كل أمة بلسانها،

ويحاورها بلغتها، ويباريها في منـــزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يســـألونه في غير موطن عن شـــرح كلامه وتفسير قوله، ومـــن تأمّل حديثه وســـيره علم ذلك وتحققـــه، وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع قبائل حضرموت وملوك اليمن، وانظر كتابه إلى همـــدان: (إن لكم فرعاً ووهاطها وعزازها، تأكلون علافها، وترعون عفاءها، لنا من دفئهم وصرامهم ما ســـلموا بالميثاق والأمانـــة، ولهم من الصدقـــة الثلب والناب والفصيل والفـــارض الداجـــن والكبش الحـــواري، وعليهم فيها الصالغ والفارج) انظر الحسني، الإنسان الكامل ص ٥٢.

شرح مفردات الحديث الشريف:

- **فرعها:** ما ارتفع من الأرض من مرتفعات البقاع.
- وهاطها: هي الوهطة وما سفل وما انخفض.
- **عزازها:** ما اشتد وصلب من الأرض مما لا ملك ولا حد عليه.
- **علافها:** ج. علف وهو ما تأكله الماشية.
- **عفاءها:** من عفا الشيء إذا اندرس: ما ليس لأحدٍ فيه ملك.
- **دفئهـــم:** الدفء: الإبل والغنم ســـميت بذلـــك لأنها يتخذ من أصوافها وأوبارها أثاثاً يتدفأ به.
- **صرامهم:** ج: صرمة وهي القطعة من النخل.
- **الثلـــث:** الجمل المســـن الهرم، والنـــاب مثل الثلـــب إلا أنه مخصوص بالنوق.

- **الفصيل:** ولد الناقة. الفارض: البقرة المُسِنّة.
- **الصالـغ:** هو مـن البقر والغنم كمل وانتهى سـنه في السـنة السادسة.
- **الفارح:** من ذوات الحافر ما أكمل خمس سنين.

عن البراء رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسـول الله ﷺ يوم الخنـدق ينقل التراب حتى وارى التراب شـعر صـدره، ورأيت النبي ﷺ يرتجز يـوم الخندق وهم يحفرونه، وهـو ينقل التراب حتى وارى جلدة بطنه.

وعن جابر رضي الله عنه قال: مكث رسـول الله ﷺ وأصحابه يحفرون الخندق ثلاثاً ما ذاقوا طعاماً فقالوا: يا رسول الله، إن هذه كدية من الجبل، فقال: **(رشـوها بالماء)** فرشـوها، ثم جاء النبي ﷺ فأخذ المعول أو المسـحاة ثم قال: **(بسـم الله)** ثم ضرب ثلاثاً، فصار كثيباً يُهـال، قال جابر: فحانت مني التفاتة فرأيت رسـول الله ﷺ وقد شد بطنه بحجر.

قدم رجل من إراش بإبـل له مكَّة فابتاعهـا منه أبو جهل فمطله بأثمانها، فأقبل الإراشـي حتى وقف على نادٍ من قريش ورسول الله ﷺ في ناحية المسجد جالس، فقال: يا معشر قريش، من رجل يؤديني على أبي الحكم بن هشام، فإني رجل غريب، ابن سـبيل، وقد غلبني على حقي؛ فأشـاروا إلى الرسول ﷺ يهزؤون به: قالوا: اذهب إليه فإنه يؤديك عليه. فأقبل عليه وشكا له حاله فقام معـه ﷺ حتى جاء باب أبي جهـل فضرب عليه

فقال: من هذا قـــال: «محمَّد، فاخرج إليَّ، فخـــرج إليه وما في وجهه بقية روح قد انتقع لونه فقال: أعط الرجل حقه، قال: نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدخل، فخـــرج إليه بحقه فدفعه إليه، وانصرف الأراشـــي يقول: جزاه الله خيراً فقد والله أخذ لي بحقي.

أقبـــل القوم على أبـــي جهل يســـتطلعون الخبر فـــي إعطاء الأراشـــي حقه فقال أبو جهل: رأيت عجباً من العجب، وَيْحَكُمْ، والله ما هو إلا ضرَب على بابي وسمعت صوته فملئت رعباً، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسه لفحلاً من الإبل، ما رأيت مثل هامته ولا قصرته ـ أي أصل عنقـــه ـ ولا أنيابه لفحل قط، والله لو أبيت لأكلني. وهذا تأييد رباني لرســـوله الكريم لينصر به الحق ويأخذ للمظلوم حقه من الظالم، وبهذا بُعث الرسول ﷺ، ينصر المظلوم ويعين الناس على نوائب الدهر.

ما خصَّ به النبي ﷺ من الآيات:

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أُعطي مـــن الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيتُه وحياً أوحَاهُ الله إليَّ وأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» أخرجه البخاري (كتاب فضائل القرآن).

فقد خصّ الرســـول ﷺ بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا تصل إليه يـــد التبديل والتحريف

مثل ما حدث للكتب السابقة وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: (أُعطيت خمساً لم يعطهنَّ أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأينما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأحلّت لي الغنائم ولا تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة)، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة، أخرجه البخاري في التيمم والمقصود بالرجل أي المسلم رجلاً أو امرأة لا فرق في ذلك بينهما والشفاعة تكون للتقي برفع الدرجات.

شفاعة الرسول للتقي من الورى وليس للشقي

(نور الدين السالمي)

عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكُهَا إلى ما زوى لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال يا محمَّد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، أو قال من بين

أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً) أخرجه مسلم في كتاب الفتن.

كان ابن عباس رضي الله عنهما يحدث:

«أن الله أرسل إلى نبيِّه ﷺ ملكاً من الملائكة معه جبريل: فقال الملك: يا رسول الله إن الله عز وجل يخيّرك بين أن تكون عبداً نبياً وبين أن تكون ملكاً نبياً، فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير له، فأشار جبريل بيده أن تواضع. فقال رسول الله ﷺ لا بل عبداً نبياً فما أكل بعد تلك الكلمة طعاماً متكئاً حتى لحق بالله عز وجل (أخرجه المصنف في شرح السُّنة رقم ٣٦٨٤ وأخرجه البيهقي عن ابن عباس).

عن جابر بن سَمْرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلّم عليَّ قبل أن أبعث، وإني لأعرفه الآن) أخرجه مسلم كتاب الفضائل. عن علي كرّم الله وجهه قال: كنا مع رسول الله ﷺ بمكة فرُحنا في نواحيها خارجاً من مكَّة بين الجبال والشجر فلم يمر بشجر ولا جبل إلا قال: (السلام عليكم يا رسول الله) أخرجه الترمذي في المناقب.

ما خص الله به النبي ﷺ يوم القيامة:

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع، أخرجه مسلم في الفضائل).

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أول من يقرع باب الجنة)** أخرجه مسلم: كتاب الإيمان. عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **(آتي يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمَّد، فيقول: بك أُمرت لا أفتح لأحد قبلك)** أخرجه مسلم كتاب الإيمان.

أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن:

كانت النساء حول الرسول ﷺ نجوماً وكواكب، تسطع وتضيء، شاركن في معترك الحياة بفيض من العطاء، منهن المجاهدة التي رفعت لواء الجهاد بجانب رسول الله، ومنهن المعلمة المربية للأجيال، ومنهن السباقة للإسلام فكانت أول المسلمين رفعاً لراية التوحيد ووقوفاً بجنب الرسول تشدّ أزره وتقوي إيمانه وتدافع عنه، ومنهن من بذلت نفسها شهيدة في سبيل الله، ومنهن من قامت بدورها الريادي في الهجرة تغدو وتروح على غار ثور خدمة للرسول وصاحبه، ومنهن من تستشار في صلح الحديبية فتشير بالرأي الحصيف ويفتح الله تعالى على يديها كل خير، هذه صفات النساء حول رسول الله وفي مقدمتهن أمهات المؤمنين رضوان الله تعالى عليهن.

قال ﷺ: **(حُبِّب إليّ النساء والطيب وجُعلت قرّة عيني في الصلاة)** رواه النسائي في عشرة النساء.

فلا غرابة أن يحب الرسول ﷺ النساء، بل هذا من كمال الرجولة، وهذا الحب جعل الرسول يتزوج وتكون له بذلك أسرة وبيت منها تخرج الحكمة ويستقي المسلمون الآداب الزوجية وعشرة الزوجات وتتعلم النساء فِقه العلاقة بين الزوج وزوجته ومنهجية تربية الأبناء. وهذا الحب للنساء أعان الرسول عليه السلام كثيراً في مجال الدعوة، ومن ذلك موقف خديجة من نزول الوحي، ووقوفها المشرف جنب زوجها المحبوب، أو موقف أم سلمة في صلح الحديبية عندما يستشيرها زوجها فتشير عليه بعقل راجح ورأي سديد، أما عائشة فحدّث ولا حرج إذ كانت المبلغة للنساء آداب العلاقة الزوجية وأحكامها.

كان عليه الصلاة والسلام يعلم النساء أمور دينهن وما يختص بهن دون الرجال في إطار من الأدب النبوي الجمّ، ثم تكمل زوجاته ما استحى الرسول من ذكره أمام النساء، روت عائشة قالت: إن امرأة من الأنصار هي: أسماء بنت شكل، سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض؟ فأمر كيف تغتسل، ثم قال: **(خذي فِرْصَة من مسك فتطهري بها)**، قالت: كيف أتطهر بها؟ قال **(تطهري بها)** قالت: كيف أتطهر بها؟ قال: **(سبحان الله تطهري بها)** تقول عائشة: فاجتذبتها إليَّ، فقلت: تتبعي بها أثر الدم. رواه البخاري ومسلم.

أرأيت كيف كان نساء النبي يعلمن النساء ما احتجن إليه من الأحكام.

١ ـ خديجة أم المؤمنين.. أول المسلمات:

تزوجها عليه الصلاة والسلام فكانت خير زوجة بارّة بزوجها، مؤمنة بربّها تزوّجها وعمره خمس وعشرون سنة وعمرها أربعون، كانت خير معين لزوجها ولمن أسلم من الرجال والنساء، واست رسول الله بمالها، وشملته بحنانها، وأعانته بصبرها وجلدها، وصبرت على ما لقت من عَنت المشركين فما وهنت وما ضعفت وما اشتكت. فكانت المثال والقدوة والذكر الحميد، فكان عليه السلام يقول فيها: **(لقد رزقت حبها)** ويقول: **(والله ما أبدلني الله خير منها، آمنت بي حين كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء).**

٢ ـ عائشة بنت الصِّدِّيق:

عائشة بنت أبي بكر بن أبي قحافة وصف بالصِّدِّيق لتصديقه الكبير بالإسلام، أمها: أم رومانة، كانت رضية الخلق محمودة السيرة أسلمت مع زوجها أبي بكر، قال عنها الرسول: **(من سرّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومانة)** تربت عائشة بين والدين مسلمين. تزوجها الرسول ﷺ وعقد عليها بمكة وبنى بها بالمدينة المنوّرة. كانت رضي الله عنها أفقه أمهات المؤمنين وأعلمهن بشرع الله تعالى ذكية فطنة منذ طفولتها، كانت تحب الرسول وتغار عليه، أخذت من زوجها الكثير من العلوم التي بوّأتها مقاماً عليًّا.

روى هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحداً أعلم بفِقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

٣ ـ حفصة بنت الفاروق:

إنها السيدة الصوّامة القوّامة بشهادة السماء:

كانت زوجة لحسن بن حذافة ممن شهدوا بدراً، توفي في المدينة، وبعد انقضاء عدتها عرضها أبوها على أبي بكر فاعتذر ثم على عثمان فاعتذر، وكان سبب اعتذارهما أنهما سمعا رسول الله يذكرها. وساء عمر اعتذارهما فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال له: **(يتزوج حفصة من هو خير منهما)** ثم خطبها من أبيها وأصبحت من أمهات المؤمنين وكان ذلك في السنة الثالثة للهجرة على أشهر الأقوال. بعد وفاة زوجها تفرغت لصلاتها وصيامها وقيامها إلى أن لقيت ربها رضوان الله عليها.

٤ ـ أم سلمة:

هذه كنيتها، أمّا اسمها فهند، أبوها من أجواد قريش، إنه أبو أمية سهل بن المغيرة المخزومي لقبه أهل مكّة بزاد الركب كان إذا خرج في قافلة تكفل بزادها.

توفي زوجها من جرح أصابه في أُحُد. فعزّاها الرسول بقوله: **(سلي الله أن يؤجرك في مصيبتك ويخلفك خيراً)**. ثم خطبها عليه السلام

لنفسه وتزوجها، فاجتمع لها من الفضائل النسب الشريف والبيت الكريم، والسبق إلى الإسلام، والهجرة وعلو المكانة، وسمو الأخلاق. أشارت على رسول الله يوم الحديبية عندما اشتد الأمر بالمسلمين فقالت: يا نبي الله، اخرج وانحر بُدنك فسيتبعونك إن شاء الله، فخرج عليه السلام وأخذ برأيها وسارع الصحابة الكرام إلى هديهم ينحرونها فكانت نِعم المشورة ونِعم النصيحة رضي الله عنها وأرضاها.

٥ ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان:

واسمها رملة، أسلمت بمكة وهاجرت مع زوجها عبدالله بن جحش إلى الحبشة، فتنصر زوجها هناك وفارقها، فخطبها رسول الله ﷺ من النجاشي، ولما عادت إلى المدينة بنى بها ولم يتركها أرملة مهينة بعد مصابها بتنصّر زوجها وعداوة أبيها، وكان ذلك سنة ست أو سبع للهجرة. إنها امرأة ذات رأي، وذات عقل يهديها إلى سواء السبيل. لما قدم أبو سفيان المدينة عزم على الدخول إلى بيت ابنته لعلها تشفع له عند رسول الله ولقريش. ولما دخل حجرتها تقدم ليجلس على فراش في ركن البيت. وما راعه إلا أن تطوي ابنته الفراش عنه وأخبرته أنه فراش رسول الله وأن أبا سفيان مشرك نجس. ثبتت أم حبيبة على دينها لما تنصّر زوجها، وهاجرت وصبرت وكتبت لها هجرتان ونالت فضل الزواج برسول الله رضي الله عنها وأرضاها.

٦ ـ زينب بنت جحش رضي الله عنها:

هي ابنة عمة الرسول ﷺ، وقد كانت زوجة لزيد بن حارثة فساءت العشرة بينهما فاضطر زيد إلى تطليقها. وبأمر من الله تعالى تزوج رسول الله ﷺ زينب لحكمة أرادها الله ﷻ وهي إبطال عادة التبني التي كانت متبعة في الجاهلية. كان زيد بن حارثة مولى لخديجة فوهبته لرسول الله فأعتقه ورباه حتى أصبح يسمى زيد بن محمَّد ثم زوجه ابنه عمته زينب. ولما شاء الله أن يبطل عادة التبني أمر رسوله بأن يتزوجها بعد تطليقها من زيد ليعلم الناس أن زيداً ليس ابناً لرسول الله. كانت زينب في كنف الرسول منصرفة إلى عبادتها ولم تدخل في ما دخلت فيه زوجاته عليهن السلام من غيرة ومنافسة عليه فقد كفاها إيمانها وجمالها وحب الرسول لها.

وبعد وفاة الرسول شغلت نفسها برعاية الفقراء والمساكين وكانت أطول نساء رسول الله يداً وأكثرهن سخاء، رضوان الله عليها.

٧ ـ سودة بنت زمعة وأمها من بني النجار:

هي أول امرأة بنى بها الرسول ﷺ بعد خديجة رضي الله عنها، كانت قبله عند السكران بن عمرو فمات زوجها بعد عودته من هجرة الحبشة، فلم يبق لها معيل، فهي إما أن تعود إلى أهلها فتؤذى أو تفتن في دينها، أو تعيش عالة على المجتمع لا معيل لها، أو

تزوج لغير كفء، فضمها الرسول ﷺ إليه وحفظ لها دينها وكرامتها، أهدت ليلتها لعائشة مراعاة لصغر سنها وحفاظاً على بقائها مع رسول الله ﷺ.

٨ ـ زينب بنت خزيمة رضي الله تعالى عنها:

كانت تُدعى في الجاهلية أم المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم كانت تحت الطفيل بن الحارث، فطلقها فتزوجها أخوه عبيدة بن الحارث فقتل يوم بدر شهيداً، فخطبها ﷺ فجعلت أمرها إليه فتزوجها عليه السلام وأصدقها اثني عشرة أوقية ونشاً؛ (أي: نص أوقية)، كان ذلك على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة قبل أُحُد بشهر، مكثت عند رسول الله ﷺ ثمانية أشهر وقيل شهران أو ثلاثة ثم توفيت وصلى عليها رسول الله ﷺ ودُفنت بالبقيع وقد بلغت ثلاثين سنة أو نحوها، ولم يمت في حياته من أزواجه ﷺ إلا هي وخديجة رضي الله تعالى عنهما.

٩ ـ جويرية بنت الحارث رضي الله عنها:

ابنة سيد بني المصطلق، كانت أعظم امرأة بركة على قومها، وقد كانت سبباً لإطلاق سراح الأسرى من قومها بعد أن وقعوا في أيدي المسلمين، وكانت جويرية أسيرة معهم، ولما فك الرسول ﷺ أسرها وتزوّجها أعتق كل الناس أسراهم إكراماً لرسول الله ﷺ وكان ذلك في شعبان سنة ستة للهجرة.

١٠ ـ زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية:

من بني هلال بن عامر تزوجها الرسول ﷺ ولم تلبث معه طويلاً حتى توفيت بعد ضمّه إليها بشهرين رضي الله عنها.

١١ ـ صفية بنت حيي بن أخطب:

من بني النضير، كانت قد أسرت بعد قتل زوجها في غزوة خيبر فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه وأعتقها بعد أن ترك لها الخيار بين أن تتزوج أو تلحق بأهلها، فاختارت جوار الرسول عليه السلام فتزوّجها إكراماً لها ووصلاً ببني إسرائيل لعله يخفف من عداوتهم له. وكان ذلك سنة سبع للهجرة وفي السنة نفسها تزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث الهلالية إثر عمرة القضاء هي آخر أزواجه وآخرهن وفاة، زوّجه إياها عمه العباس وهي أخت زوجه أم الفضل وعبدالله وقد رأى العباس في ذلك مصالحة كبرى وإرضاءً لزوجته.

١٢ ـ ريحانة بنت يزيد من بني النضير:

وقيل من بني قريظة، وكانت عند رجل من بني قريظة يقال له الحكم. كانت جميلة وسيمة، وقعت في سبي بني قريظة، خيّرها رسول الله ﷺ بين الإسلام ودينها، فاختارت الإسلام فأعتقها وتزوجها، وأصدقها اثني عشرة أوقية ونشاً، وذكر بعضهم أنه ﷺ خيرها بين أن يعتقها ويتزوجها، وبين أن تكون له في

ملكه، وعليه فتكون من السراري لا من الزوجات، والأول، أي أنها زوجة أثبت عند أهل العلم. دخل بها عليه السلام سنة ست من الهجرة، وغارت عليه غيرة شديدة فطلَّقها فأكثرت البكاء فراجعها ﷺ. وقيل ماتت بعد رجوعه ﷺ من حجة الوداع ودفنها بالبقيع.

١٣ ـ ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها:

كان اسمها برّة فسمّاها ميمونة. زوجها له ﷺ عمّه العباس رضي الله عنه، وهي خالة ابنه عبد الله بن عباس. كانت في الجاهلية عند مسعود بن عمرو ففارقها فخلف عليها أبو رهم فتوفي عنها فتزوجها ﷺ وهو محرم في عمرة القضاء. أقام عليه السلام بمكة ثلاثاً وبنى بها بسرف بعد ما أحل. ماتت سنة إحدى وخمسين على الأصح وبلغت ثمانين سنة، ودُفنت بسرف الذي هو محل الدخول بها.

توفي الرسول ﷺ عن تسع نسوة رضي الله عنهن وقد نظمهن بعضهم فقال:

توفي رسول الله عن تسع نسوة
إليهن تعزى المكرمات وتنسب
فعائشة، ميمونة، وصفية
وحفصة تتلوهن هند وزينب

جويرية، مع رملة، ثم سودة
ثلاث وست ذكرهن مهذب

قال عليه الصلاة والسلام: **(ما تزوجت شيئاً من نسائي ولا زوجت شيئاً من بناتي إلا بوحي جاءني به جبريل عليه السلام من ربي عز وجل)** وعنه عليه الصلاة والسلام أن خديجة رضي الله عنها تزوجها قبل نزول الوحي.

أم شريك غزية:

وهبت نفسها للنبي ﷺ فلم يقبلها ولم تتزوج حتى مات ﷺ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وقع في قلب أم شريك الإسلام وهي بمكة فأسلمت، ثم جعلت تدخل على نساء قريش سراً فتدعوهن للإسلام وترغبهن فيه حتى ظهر أمرها لأهل مكّة فأخذوها، وقالوا لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا، ولكنا نسيرك إليهم، قالت: فحملوني على بعير ليس تحتي شيء ثم تركوني ثلاثاً لا يطعموني ولا يسقوني، وكانوا إذا نزلوا منزلاً أوقفوني في الشمس واستظلوا، فبينما هم قد نزلوا منزلاً وأوْقفوني في الشمس إذا أنا بأبرد شيء على صدري فتناولته فإذا هو دلو من ماء، فشربت قليلاً ثم نزع مني ورُفع، ثم عاد فتناولته فشربت منه ثم رفع، ثم عاد ثم رفع مراراً فشربت منه حتى رويت ثم أفضت سائره على جسدي وثيابي، فلما استيقظوا إذا هم بأثر

الماء على ثيابي، فقالوا: انحللت فأخذت سقاءنا فشربت منه، فقلت: لا والله ولكنه كان من الأمر كذا وكذا، فقالوا: لئن كنت صادقة لدينك خير من ديننا، فلما نظروا إلى أسقيتهم وجدوها كما تركوها فأسلموها عند ذلك وأقبلت على النبي ﷺ فوهبت نفسها له.

تزوج الرسول ﷺ بعض النسوة ولم يدخل بهن ومن جملتهن:

- **عزّ أُخت دحية الكلبي** رضي الله تعالى عنه، ماتت من الفرح لما علمت أنه ﷺ تزوج بها، ماتت قبل دخوله عليها.
- **سودة القرشية** خطبها عليه السلام فاعتذرت ببنيها وكانوا خمسة وقيل ستة فقال لها خيراً.
- **امرأة تعوذت منه ﷺ** فقالت: أعوذ بالله منك، فقال لها: **(لقد عذت بمعاذ، وقد أعاذك الله مني)** فصرف وجهه عنها وأمر أسامة رضي الله عنه فمتعها بثلاثة أثواب.
- **قُتبَلة** «بضم القاف وفتح الباء المثناة فوق» بنت قيس أخت الأشعث بن قيس الكندي، زوجه إياها أخوها وهي بحضرموت ومات ﷺ قبل قدومها إليه.

وأما سراريه عليه السلام فأربع، مارية القبطية أم ولده إبراهيم وريحانة على قول وجارية وهبتها له زينب بنت جحش وأخرى اسمها زليخة القرضية.

بنوه وبناته ﷺ:

ولدت خديجة لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم الذي وُلد بالمدينة من مارية القبطية، وقد أهداها المقوقس عظيم القبط إلى النبي ﷺ وأهدى معها أختها سيرين، وهي التي وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت. وأكبر بنيه القاسم، وبه يكنى، ولد قبل النبوة بمكة، وهو أوّل من مات من ولده. ثم ولدت له زينب، ثم رقية، ثم فاطمة، ثم أم كلثوم، ثم ولد له في الإسلام عبد الله (وهو الطيب الطاهر) وهؤلاء كلهم من خديجة، ومات بعد القاسم عبد الله.

فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع ولده فهو أبتر.

فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]. وعبد الله هو آخر أولاده من خديجة. أما إبراهيم فولد له سنة ثمان للهجرة ومات وهو ابن ستة عشر شهراً. وقيل ثمانية عشر في سنة عشر من الهجرة.

أما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ.

بنات النبي ﷺ:

زينب الكبرى:

لم تكن قد جاوزت العاشرة من عمرها حين دنت إليها عيون الهاشميين وتنافست بيوتات مكّة على الظفر بها عروساً، فنال هذا الشرف أبو العاص بن الربيع أحد رجال مكّة

المعدودين شـــرفاً ومالاً وقد اطمأنت إليه زينـــب في غير حذر ولا حرج ووافقت «خديجة» على أن يتقـــدم ابن أختها إلى أبي زينب خاطباً بعد أن مهدت خديجة السبيل أمام ابن الربيع. أتاح للزوجيـــن أن ينعما بالعيش فـــي ظل الزوجيـــة الموفقة، أعلنت إســـلامها منذ الوهلة الأولى لنزول الوحي على رســـول الله ﷺ وأعلمت زوجها فلم يســـلم قائلاً لها: والله ما أبوك عندي بمتهم، وليس أحب إليّ من أن أســـلك معك في شـــعب واحد، ولكني أكره أن يقال أن زوجك خذل قومه وكفر بآبائه إرضاء لأســـرته. التحقت بوالدها تاركة زوجها بمكة. أسر زوجها في بدر فقامت بدفع الفدية لإطلاق ســـراحه وبعد عودته مكَّـــة قفل راجعاً إلى المدينة ليعلن إســـلامه. وتوفيت زينب في مســـتهل السنة الثامنة للهجرة.

رقية ذات الهجرتين:

تزوجت عتبة ابن العم عبدالعزى وقد كني بأبي لهب ولما بعث الرســـول ﷺ تحرك أبو لهب لإذايته فأمر ابنه عتبة بمفارقة زوجته رقية تنكيلاً بأبيها فاستجاب لطلب أبيه وكانت أم جميل المحرك الأساســـي في الموضوع. قيل تم الطلاق قبل الدخول بها وقيل بعـــد انتقالها إلى بيت أبي لهب وقد لاقت من ســـوء المعاملة من أم جميـــل وصبرت على ذلك حتى أراحها الله منها بالفراق. وتقدم عثمان بن عفان إلى رســـول الله ﷺ يسأله شرف

المصاهرة فزوجه ابنته رقيــة فعوضها الله به خيراً، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة. أصابتها حمى فبقي زوجها يرعاها وتخلف بســبب ذلك عن بدر ثم توفيت إثرها مباشــرة رضي الله تعالى عنها.

أم كلثوم:

تزوجــت عتيبة بن أبي لهب ثم ما لبــث أن طلقها كما فعل عتبة برقية، وبعد وفــاة رقية تزوجها عثمان بــن عفان على مثل صداق رقية. عاشت ست سنين في بيت زوجها رأت فيها الإسلام ينمو ويحقق انتصــارات وزوجها ينفق من ماله في خدمة دين الله تعالى. عز عليها في صلح الحديبية أن يقول الرســول ﷺ: (رحم الله المحلقين) حتى قال: (والمقصرين) فعرفت أن زوجها عدَّ من أصحاب بيعة الرضوان وإن تغيب عنها إذ بعثه الرســول ﷺ إلى مكَّة في أمر لا يقــوم به غيره، توفيت رضي الله عنها فــي بيت عثمان في شهر شعبان ســنة تســع من غير ولد ودُفنت في المدينة بجانب أختها رقية.

فاطمة الزهراء بنت محمَّد ﷺ:

أمها خديجة رضــوان الله تعالى عليها، هــي زوجة علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وأم السبطين الحسن والحسين. عاشت في بيت النبوة مكرمة ونهلت من القرآن والحكمة الكثير. تخلفت

وأختها أم كلثوم عن الهجرة في بيت النبوة بمكة حتى أمر الرسول لها بالرحيل. تقدم بطلب يدها أبو بكر وعمر ولكن الرسول ردهما ردًّا لطيفاً، وتزوجها علي بن أبي طالب وأمهرها درعاً له كان منحه إياه رسول الله. وعاشت في أسعد بيت مع أفضل رجل. وكان لها أثر كبير في نفوس الناس بما نالته من حسن الخلق، وجميل الطبع. وقد نالت من حسن السيرة وطيب الأحدوثة الشيء الكثير. توفيت بعد وفاة الرسول ببضعة أشهر.

خُلقه ﷺ مع أهله وقراباته:

كان ﷺ كريم العشرة مع زوجاته وسائر أهله يلاطفهن، ويمازحهن، ويعاملهن بالود والإحسان، قال عليه السلام: **(خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)** الترمذي..

وقوله: **(إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله)** الترمذي. وسئلت عائشة، كيف كان ﷺ إذا خلا في بيته؟ فقالت: كان ألين الناس بساماً ضحاكاً. ومن كريم عشرته مع أهله ما جاء عن السائب بن يزيد: أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقال: **(يا عائشة تعرفين هذه)**؟ قالت: لا يا نبي الله، قال: **(هذه قينة بني فلان تحبين أن تغنيك، فغنتها)** أحمد وأبو داود.

من كريم عِشرته ﷺ مع أهله أنه كان يسابق زوجته عائشة وقد سابقها مرة فسبقته هي حتى إذا ما مضت فترة قال لها: **(تعالي أسابقك)** تقول عائشة: وكنت بدنت وسمنت فسبقني

وجعل يضحك ﷺ ويقول: (هــذه بتلك) وكان ﷺ في مهنة أهله، يعاونهم في أمورهم البيتية. وكان يستمع إلى حديث زوجاته في المُلَح والفكاهات تأنيساً لهن وملاطفــة. ولا يَخفى إكرامه ﷺ لمرضعته حليمة الســعدية وأخته بالرضاع الشيماء، وبسببها أكرم بني سعد كلهم فكانت أبرك امرأة على قومها.

كان رســول الله ﷺ محبًّا لبناته اللاتي خرجن إلى الدنيا في أكــرم بيت، وأنبتتهــن أعرق ســلالة لا يَعرف العــرب أعزّ منها ولا أنقى. استقبلهن البيت الكريم استقبالاً لم تظفر بمثله لِدَاتهن. فقد كن ثمرة أنقى زواج سعيد قام على الحب والمودّة الخالصة، يرى فيهن الأب صورة لطيفة من زوجــه الحبيبة خديجة رضوان الله عليها التي آنَسَــتْه بحنانها الغامر كل مــا ذاق في طفولته من يتم، وكانت لــه عِوضاً جميلاً عما قاســى مــن حرمان. درجت حياتهن الأولى على ما نعرف من تقاليد البيوت القرشية العريقة فأســرعن إلى النمو بفضل مــا تهيأ لهن من بيــت كريم ورعاية مثالية وتفتّح صباهن كما يتفتح الزهر في المنبت الطيب.

المدينة المنوَّرة:

مدينة الرسول الكريم ﷺ طيبة الطيب، مهبط الوحي، ومتنزل جبريل عليه السلام على الرســول الكريم، وهي مآرز الإيمان أي ملجأه. وملتقــى المهاجريــن والأنصــار، وموطــن الذين تبــوّأوا الدار والإيمان، وهي عاصمة الإسلام الأولى، فيها عُقدت ألوية الجهاد

في سبيل الله، فانطلقت كتائب الحق بالدعوة إلى الله تعالى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومنها شعّ النور فأشرقت الأرض بنور الهداية، وهي دار هجرة المصطفى ﷺ، إليها هاجر وفيها عاش آخر حياته، وبها توفي، وفي ترابها قُبِر، ومنها يُبعث. وقبره أول القبور انشقاقاً عن صاحبه، ولا يُقطع بمكان قبر أحد من الأنبياء سوى مكان قبره صلوات الله عليه وسلامه.

من فضائل المدينة المباركة أن الله تعالى جعلها حرماً آمناً كما جعل مكَّة حرماً آمناً، وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: **(إن إبراهيم حرَّم مكَّة وإني حرَّمت المدينة)** رواه مسلم.

هذا التحريم من الله ﷻ هدى إليه أنبياءه. تشد الرحَال إليها للصلاة وبمسجد الرسول يضاف إليها المسجد الأقصى، قال عليه السلام: **(لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى)** رواه البخاري ومسلم. والمدينة حرم كلها ما بين عير إلى ثور وما بين لابَتيها. قال عليه السلام: **(المدينة حَرمُ ما بين عيْر إلى ثور)** رواه الشيخان.

وقال: **(إني حرَّمت ما بين لَابَتيْ المدينة أن يقطع عضادها أو يقتل صيدها)** رواه مسلم. أي ما بين الحرتين أو ما بين الجبلين.

سمَّى الرسول ﷺ المدينة (طيبة) و(طابة) قال عليه السلام: **(إن الله سمى المدينة طابة)** رواه مسلم.

وهذان اللفظان مشتقان من الطيب، ويدلّان على الطيب، فهما لفظان طيبان أُطلقا على بقعة طيبة.

ومن فضائلها أن الإيمان يأزر إليها. قال عليه السلام: **(إن الإيمان ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها)** «الشيخان» ومعنى ذلك أن الإيمان يتجه إليها ويكون فيها، والمسلمون يؤمونها ويقصدونها، يدفعهم إلى ذلك الإيمان ومحبة هذه البقعة المباركة التي حرّمها الله عز وجل.

ومن فضائل المدينة أن النبي ﷺ حثّ على الصبر على لأْوائها وجهدها وقال: **(المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)** قال ذلك في حق الذين فكّروا في الانتقال من المدينة إلى الأماكن التي فيها الرخاء وسِعة الرزق.

فالنبي ﷺ قال: **(المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحد على لأوائها وجَهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة)** رواه مسلم.

وقد دعا الرسول لها بقوله: **(اللهم بارك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدّنا)** رواه مسلم.

مساجد الرسول ﷺ فيما بين المدينة إلى تبوك:

كانت مساجد الرسول ﷺ فيما بين المدينة إلى تبوك معلومة مساماة، مسجد تبوك، ومسجد بثنية مِدران، ومسجد بذات الزراب، ومسجد بالأخضر، ومسجد بذات الخطميّ، ومسجد بألاء، ومسجد بطرف البتراء، من ذنب الكواكب، ومسجد بالشق،

شق تارا، ومسجد بذي الجيفة، ومسجد بصدر حوضى ومسجد بالحجر، ومسجد بالصعيد، ومسجد بالوادي، «اليوم وادي القرى» ومسجد بالرقعة من الشقة، شقة بني عذرة، ومسجد بذي المرْوة، ومسجد بالفيفاء، ومسجد بذي خُشب.

معرفة الرسول ﷺ بالتخطيط والتنظيم العمراني:

كان ﷺ يهتم بعملية التخطيط والترتيب لبناء المنازل والدور، وكانت له ﷺ معرفة واسعة بتخطيط ذلك وتنظيمه على أساس يحفظ حق الشارع والمارة، ويحفظ حق الجار ويحفظ حق المسجد، ويراعي في ذلك أيضاً القواعد الصحية المطلوبة. من مناسبة البناء في ذلك المكان أو عدم مناسبته فالدور لها موضعها الخاص بها، والحمام كان له موضعه المناسب له في التخطيط النبوي، والسُّوق له موضعه اللائق به في التخطيط النبوي وكان ﷺ يقوم بنفسه على تنفيذ ذلك.

خرج الرسول ﷺ إلى مكان فسيح فقال: (نِعم موضع الحمام هذا)، فبني فيه الحمام.

وفي سنن أبي داود: أن النبي ﷺ بعث أن ينادى في معسكره أن من ضيق منزلاً، أو قطع طريقاً فلا جهاد له. وذلك لمنا ضيق الناس المنازل وقطعوا الطرق، فيؤخذ منه أنه كان ﷺ يحب النظام حتى في نصب الأخبية في السفر، فكيف لا يحب ذلك في محل الاستيطان والبناء المشيد.

وكان ﷺ يأمر في البناءات أن تكون على مقتضى القواعد الصحية، ولذلك يقول لمن سأله عن حق الجار: **(لا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح، ولا تؤذه بريح قدرك إلا أن تغرف له منها)** وفي رواية: **(ولا تحجب عنه الريح إلا بإذنه)**. رواه ابن ماجه والطبراني.

من اهتمامه ﷺ بأمر السوق، أنه كان يراقب أحوالهم ويسأل عما يجري في السوق، ولما علم أنهم كانوا يشترون الطعام من الركبان بعث من يمنعهم من ذلك، روى البخاري عن ابن عمر: أنهم كانوا يشترون الطعام من الركبان على عهد رسول الله ﷺ فبعث عليهم من يمنعهم أن يبيعوه حيث اشتروه حتى ينقلوه حيث يباع الطعام، ونهى عليه السلام عن تلقي الركبان، وينهى أن يبيع حاضر لباد. وقد يخرج بنفسه إلى السوق لمراقبة ما يجري هناك، جاء في الحديث أنه عليه السلام مر على صاحب طعام فأدخل يده فنالت بللاً، فقال: **(يا صاحب الطعام ما هذا؟)** قال أصبته السماء يا رسول الله قال: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس. ثم قال: **(من غشّنا فليس منا)** رواه الترمذي وقال حسن.

استعمل رسول الله ﷺ بعد الفتح سعيد بن سعيد بن العاص على سوق مكّة، واستعمل عمر على سوق المدينة. وكان يأمر بمراقبة الوزن، يقول أبو هريرة: كان لأهل السوق وزّان يزن، فقال له عليه السلام: **(زن وارجح)** رواه أحمد: ومعنى قوله: «زن» أي زِن الثمر، وأرجح: أي زد عليه حتى ترجح الميزان بزيادة الكفة.

وكان عليه السلام يهتم بتوفير السلع في الأسواق ورواجها وكثرتها لئلا تغلو ولتكون في متناول اليد، فكان عليه الصلاة والسلام يقول: **(الجلب مرزوق والمحتكر ملعون)** رواه ابن ماجه.

وكان عليه السلام يحث على الخروج إلى الأسواق للبيع والشراء والتجارة ومزاولة الأعمال والحرف المختلفة.

كان الناس على عهد الرسول ﷺ الذين يزاولون مهنة البيع والشراء يسمون السماسرة، فسماهم الرسول باسم أشرف منه، سماهم بالتجار وهو اسم أحسن من الأول ولعل وجه الأحسنية أن السماسرة تُطلق على المكاسين، أو لعل هذا الاسم في عهده عليه السلام كان يطلق على من فيه نقص. وكان عليه السلام إذا رأى الرجل يحسن ويتقن صناعة الشيء وكله إليه وشجعه عليه حتى يبرز فيه. من ذلك أنه عليه السلام رأى قيس بن طلق الحنفي وهو يبني معهم المسجد الشريف ورآه يتقن ويحسن عمل الطين فوكله إليه وقال: **(قربوا له الطين فإنه أعرف به)**.

حدَّث قيس بن طلق قال: قدمت المدينة على النبي ﷺ وهو يبني مسجده، والمسلمون يعملون فيه معه، وكنت صاحب علاج وخلط طين فأخذت المسحاة أخلط الطين ورسول الله ﷺ ينظر إليّ ويقول: **(إن هذا الحنفي لصاحب طين)** وفي رواية: **(فإنه أضبطكم للطين)** وفي رواية وقف رسول الله ﷺ على قبر فكأنه رأى باللبنة سوء خلط فأمر بأن يصلح، وقال: **(إن الله يحب إذا عمل العبد عملاً أن يحسنه ويتقنه)**.

الرسول المربّي:

الرسالة منهج تربية إلٰهية للمجتمع البشري، والرسول هو الذي يصطفيه الله ﷻ ويجتبيه وينزل عليه وحيه، ومحمد ﷺ بشر كامل الإنسانية في تكوينه، ولادة، وطفولة، وشباباً، ورشداً، وكهولة، وحياة ومماتاً. اختاره الله واجتباه من بين الناس الذين أرسل إليهم، وقد كملت خصائصه العقلية ذكاء وفطانة، إلى جانب كماله الأخلاقي، سلوكاً في الاستقامة والأمانة، وصدق الله العظيم إذ يقول في نبيّه الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] وقال ﷺ عن نفسه: (أدَّبني ربي فأحسن تأديبي).

كان ﷺ المثل الأعلى الخالد في تربية الجيل الأول المعاصر له في جميع فئاته العمرية ومجالاته العملية، رَبَّاهم بالقرآن وشحذ عزائمهم بالإيمان، كان ﷺ يتتبعهم خطوة خطوة، فيزيل الران من قلوبهم ويمسح الغبار من نفوسهم، ينظفهم من بقايا الجاهلية ويبني فيهم مبادئ الإسلام والحنيفية. وقد عبَّر الصحابة أنفسهم رضوان الله عليهم عن هذا المعنى بقولهم: كان رسول الله ﷺ يفرغنا ويملأنا. وبعده ﷺ توالت التربية جيلاً بعد جيل. لأن العلماء ورثة الأنبياء. وقد ورثوا رسالة النبي التربوية بكل جدارة وإخلاص، مقبلين على كتاب الله وسيرة رسول الله ﷺ يستلهمون منها سُبُل الحق ومبادئ العدل.

المعجزة الكبرى للرسول ﷺ الكتاب الرباني الذي أنزله الله عليه قرآناً يُتلى، يهدي به الله من يشاء من عباده وينير الطريق

لكل من يريد الهداية، وكان عليه السلام في مسيرته الدعوية يتخذ القرآن حدى للناس ودليلاً، وهداية ونوراً مبيناً، ومعجزة تخرس الألسن وتبكت الأفواه وتقف أمامها العقول مذعنة مستسلمة لعظمته معترفة بعجزها عن محاكاته متمثلة قوله عز وجل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

كانت حياة الرسول صلى الله عليه وآله واضحة صريحة في جميع مراحلها، في فتوّته وشبابه وفي كهولته، في حياته العادية قبل البعثة وفي رحلاته إلى الشام، وبعد نبوته، قبل الهجرة وبعدها. وهي حياة تمثّل سيرة إنسان كامل لا توجد فيها مراحل منسية أو مهملة أو غامضة. وقد تم تسجيل حياته عليه السلام من مصادرها القريبة الصادقة، فقد رويت إمّا عن أمهات المؤمنين في بيت الزوجية وهو قسم هام من حياته عليه الصلاة والسلام، أو عمّن تربّى في أسرته كعليّ بن أبي طالب وأُسامة وزيد إلى جانب بقية الصحابة الذين كانوا معه في أكثر ساعات النهار لا يفارقونه فيها أبداً. وهذه مفخرة علمية منهجية في توثيق المعلومات الصحيحة عن النبيّ المجتبى والرسول المصطفى صلوات الله عليه وسلامه وهو ما لم يتوفر لنبي مثله.

يمثل الرسول صلى الله عليه وآله قمّة التكامل الإنساني فهو المبعوث رحمة للعالمين، وهو المعلم والمربِّي، وهو المبلِّغ الأمين والكامل لرسالة الله عز وجل بكل ما تحمله الرسالة من أبعاد توجيهيّة وإرشاديّة

في مختلف شؤون الحياة. وقد أمره المولى تعالى بالتبليغ فكان خير مستجيب، وخير مطيع، وخير منفِّذ لشرع الله ﷻ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]. فكان عليه الصلاة والسلام المبلِّغ الأمين والمربِّي بالقول صدقاً وبالعمل إخلاصاً.

كان ﷺ يقوم بدور المربِّي متخذًا من القرآن الكريم منطلقاً وقاعدة لعمله التربوي والدعوي. كان يشرح للناس آيات الذِّكر الحكيم، ويبيِّن لهم مقاصدها ويوصل للناس مضامينها بفهم سليم وإدراك عميق وإلى ذلك تشير كثير من الآيات منها: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

فهو عليه السلام يستقبل الوحي من ربّه ليسري في أعماقه ويستوعب معانيه وأحكامه، عبره وعظاته ثم يبلغ ذلك لأتباعه قولاً وتوجيهاً والتزاماً في سلوكه وأفعاله تأسياً واقتداء. فهو الأسوة الحسنة، والقدوة المثالية والنموذج الذي لم يسبقه مثيل صلوات الله عليه وسلامه.

لم يكن الرسول ﷺ داعية مبادئ خيالية ولا نظريات فلسفية. وإنما كان داعياً ومربياً ومرشداً إلى التوحيد اعتقاداً وإيماناً وإلى العمل صدقاً وإخلاصاً. فكان عليه السلام يربِّي أصحابه على الإخلاص لله ﷻ. وإلى التعاون والنصيحة والشورى والعدالة والعلم والتعلّم والجهاد في سبيل الله والإعداد له روحياً ومعنوياً وماديًّا،

وكان عليه السلام يدعو إلى رعاية الأطفال واحترام المرأة وإكرام الجار وصلة الرحم. هذه هي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا هو منهجه في حياته، عمل دؤوب متواصل في التربية وإعداد الأجيال لحياة الكرامة والعزَّة.

كانت وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم هي تكوين صالح للفرد وبناء أسرة متكاملة العناصر واضحة المعالم وإرساء مبادئ سامية تلتقي عليها البشرية وتلتف حولها على مدى الأزمان. كان عليه السلام إماماً في الصلاة، وقاضياً في إرساء العدل بين الناس، وقائداً في ميدان الجهاد وسياسة الأمة، ومعلِّماً ينضح منه العلم بكل أنواعه، ومربياً يقوّم السلوك ويهذِّب النفوس وينظِّم المجتمع ويرعى الأجيال بمنهج رباني مبين.

قال عبد الله بن رواحة:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا
انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا
به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جفنه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

جاء أعرابي إلى المدينة المنورة ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم

يطلب شيئاً من الصدقة، فأعطاه النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ما كان لديه حاضراً، ثم سأل الأعرابي: **(أحسنت إليك؟)** قال الأعرابي بقسوة وجفاء: لا ولا أجملت. ردّ سيء أثار حفيظة الصحابة الكرام غير أن الرسول ﷺ أشار إليهم بالكف عنه، ثم قام ودخل منزله وأتى بما يُنعم به على الأعرابي، ثم سأله ليعلم مبلغ رضاه: **(أحسنت إليك؟)** قال الأعرابي عندئذ: نعم أحسنت وأجملت.. وجزاك الله من أهل وعشيرة.

إنه موقف رسول كريم رحيم مع أعرابي صريح، يمثِّل قمة النُّبل ونجاح التربية صلوات الله عليه وسلامه.

وبعد استرضاء الأعرابي قال له ﷺ: **(إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء عنك، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديَّ حتى يذهب ما في صدورهم عليك)** فقال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. ثم قال ﷺ لأصحابه معلِّماً ومربياً: **(مَثَلي ومَثل هذا، مَثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس ليقبضوا عليها، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها، خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه إليها بين يديها وأخذ لها من قمام الأرض من أعشابها، فردّها هادئة وجاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها)**. إنها السياسة التربوية الحكيمة التي تضمن عملية التوجيه والإصلاح.

من مفاخر التربية النبوية موقفه ﷺ من الأعرابي الذي تبول

في المسجد، وقد جاء في رواية البخاري ومسلم: عن أنس بن مالك، أنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي وقام إلى ناحية في المسجد وجعل يبول فصاح به الناس وقالوا: مه، مه، فقال رسول الله ﷺ: **(لا تزرموه)**، أي دعوه. فتركوه حتى انتهى ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: **(إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله ﷻ والصلاة وقراءة القرآن)**. ثم أمر رجلاً من القوم فجاء بذنوب فشنه، أي بدلو من ماء وسكبه عليه. في قوله عليه السلام: **(لا تزرموه)** حكمة نفسية اجتماعية بالغة في معالجة النفوس ورفق بالناس ورحمة بهم.

من مواقف الرسول الكريم التربوية: اختصم إليه رجلان في مواريث بينهما قد انمحت أدلتها وليس عندهما بينة من شهود، فقال عليه السلام لهما: **(إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم بما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار، يأتي بها انتقاماً في عنقه يوم القيامة)** موقف تربوي فيه إيقاظ للضمير ليكون هو المحاسب. فيبكي الرجلان ويقول كل منهما: حقي لأخي، فقال عليه السلام: **(أما إذا قلتما فاذهبنا فاقتسما ثم استهما، ثم ليحل كل منكما صاحبه)** رواه البخاري باب الشهادات. إنه موقف تربوي رائع في إصلاح العلاقات بين الناس.

جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ يطلب صدقة فسأله عليه السلام: **(أما في بيتك شيء)**؟ فأجاب الرجل: بلى، عندي حليس (كساء غليظ) نلبس بعضهم ونبسط بعضه وقعب (كأس) نشرب به الماء. فقال عليه السلام: **(ائتني بهما)** فأخذهما الرسول بيده وجعل ينادي في ملأ من الصحابة: **(من يشتري هذين؟)** فقال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فقال عليه السلام للأنصاري: **(اشترِ بأحد الدرهمين طعاماً فانبذه إلى أهلك، واشترِ بالآخر قدوماً فأتني به)** ويعود الرجل ليجد رسول الله قد أعدَّ خشبة بيده في القدوم ثم قال له: **(اذهب احتطب، وبع ولا أرينَّكَ خمسة عشر يوماً)**، ثم قال عليه السلام: **(لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه)** إنه توجيه عملي تربوي رائع.

إن حياة الرسول المربِّي محمَّد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه حياة مباركة عريضة على الرغم من سنواتها القليلة من عمره القصير، إنها مباركة بما قدَّمت من هداية الله وقيادة البشرية إلى طريق التوحيد والعِلم والاستقامة، إنها حياة عريضة حين انتشرت آثارها في الأُمم والشعوب وخلال أَجيال متعاقبة، وتَزداد أهمية حياته ﷺ في خصوبة وعُمق بما أنتجته من ثِمار يانِعة تربويًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا نالت من شذاها كل الأُمم ولا تزال تستنشق من عَبَق عطرها وتجني من روائع ثمارها.

إنها سيرة نبوية راقية ومنهج تربوي لا مثيل له على وجه الأرض وعلى مرّ الأزمان صلوات الله عليه وسلامه.

كان الرسول ﷺ مربياً من الطراز الرفيع بما يحمله من نضج عقلي ووعي فكـري ونظرة بعيدة المَدَى تتعـدَّى حدود المكان الذي وُلد فيه وترعرع، وحدود الزّمان الذي عاش فيه ليصل إلينا شَـذاها ونتنسّـم عبيرها. بدأ بتربية أتباعه في مكَّـة مهد الدعوة الأول، ثم أرسـل أفواجاً من صحابته الكِرام إلى الحبشة بلاد ما وراء البحر ليجدوا المأوى الآمن وليجدوا كذلك المساحة الكافية لنشـر الدّعوة الفتية فنجحت هذه الأفـواج بتقديم نموذج عملي سـلوكي لما يدعو إليه الدِّين الجديد، ونمـوذج فكري إذْ أعطوا للناس الفكـرة الصحيحة عن موقف الإسـلام من عيسـى عليه السلام ومريم البتول فأسـلم النجاشـي وتَبعهُ عدد مـن رعيته فكانت الحبشة النقطة الثانية بعد مكَّة لنشر الإسلام.

حاول الرسـول ﷺ الخروج بالإسـلام من مكَّة إلى الطّائف فكانت رحلة قاسـية، لكنّها لم تضعف من عزيمتـه في الدعوة والعمل التربوي ولم يعد منها بفراغ، بل أسلم عداس وحضر نفر من الجن وهو يتلو القرآن فسارعوا إلى التسليم بالتوحيد ورحلوا إلى قومهم منذرين، وهو نجـاح كبير قد لا ينتبـه إليه كثير من الناس، لكن الذي يبصر للأحداث بعمق يرى أن إسـلام شخص يعني زرع بذرة طيبة لا بد أن تُثمر وتُؤتي أُكُلها بإذن ربها.

وفي المرحلـة الأخيرة من جهاد الدعوة يخرج الرسـول ﷺ إلى المدينة المنـوّرة، ليجعلها عاصمة جديدة لهـذا الدِّين منها تنطلق الوفود وفيها تتجمّع الحشـود رافعة راية الإسلام، فكانت

هذه المدينة عاصمة لهذا الدِّين الجديد وموطناً مستقرًّا لرسول الرحمة صلوات الله عليه وسلامه.

إن أول مركز دعوي تربوي فُتح للدعوة إنما هو منزل الرسول ﷺ، ولا عجب، فإن أول قلب إنسان خفق بالتوحيد وأول عقل إنساني تقبّل الرسالة إنما هو قلب خديجة زوجه رضي الله تعالى عنها، ثم تبعها من الفتيان علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه وهو يعيش في أحضان معلّمه ومربّيه الأوّل رسول الله. ثم توسّعت المساحة لتخرج قريباً من بيته ﷺ فكان الصِّدِّيق أبو بكر (عبد الله ابن أبي قحافة) رضي الله عنه وقَبله في بيت النبوة زيد بن حارثة مولاه الذي لازم رسول الله في دعوته ولم يفارقه، وانضمّت إلى الوفد المبارك السيّدة أم أيمن بركة الحبشية حاضنة الرسول ﷺ فكانت هذه المجموعة المباركة النواة الأُولى للدعوة الجديدة.

بنى رسول الله ﷺ مسجده الجامع وهو المركز الرئيسي للدعوة والتربية، كان ذلك في السنة الأولى للهجرة، في مربد لـ(سهل) و(سهيل) غلامين يتيمين من الأنصار، ساومهما الرسول بالمربد ليتخذ مسجداً فقالا: بل نهبُه لك يا رسول الله. فأَبى أن يقبله هدية صيانة لمالهما لأنهما يتيمان، فيبني رسول الله ﷺ مسجده ويشاركه أفراد الجماعة المُؤمنة بالحفر وإحضار الصخر وفيهم رسول الله ينقل اللبن وجريد النَّخل وهم يرتجزون: اللَّهمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة فأكرم الأنصار والمهاجرة، ثم ينقسم العاملون إلى فريقين في تبادل التشجيع، فيقول الفريق الأول:

لئن قعدنا والرسول يعمل فذاك منا العمــل المضلل

فيجيب الفريق الآخر:

لا يستوي من يعمر المساجدا يعمــل فيها قائمــاً وقاعدا

ومــن يرى عــن التــراب حائدا

فكان ﷺ يردّد معهم الإنشاد تشجيعاً لهم وشحذًا لعزائمهم.

المراجـــع

أهم المراجع

١ ـ شذى من السيرة، ٣ أجزاء/ عاشور بن يوسف.

٢ ـ سيرة ابن هشام لابن هشام.

٣ ـ فِقه السيرة للغزالي.

٤ ـ مختصر السيرة لمصطفى السباعي.

٥ ـ فِقه السيرة للبوطي.

٦ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد.

٧ ـ عيون الأَثر.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥
سيرة الرسول ﷺ ٧
نسبه الشريف ١٠
مولده ﷺ ١٢
ما قيل في مولده ﷺ ١٣
تسميته ﷺ محمَّداً أو أحمداً ١٤
أسماؤه ﷺ الأخرى ١٦
رضاعته عليه الصَّلاة والسَّلام ومرضعاته ١٧
وفاة أمه وكفالة عمّه له صلوات الله عليه وسلامه ٢٠
طفولته عليه السلام وبعض إرهاصاتها ٢٠
شبابه وبعض إرهاصاته ٢١
الرحلة الأُولى إلى الشام ٢٢
الرحلة الثانية إلى الشام في تجارة خديجة ٢٣
وضع الحجر الأَسود ٢٣
زواج النبيّ ﷺ من خديجة ٢٤
حالة الناس قبل بعثته ﷺ ٢٥
إرهاصات قبل البعثة ٢٨
بدء الوحي ٣٠
بدء وحيه ﷺ وصفته في تلك الحالة ٣١

خبر تميم الدّاري ٣٤
لقاء سلمان الفارسي مع رسول الله ﷺ ٣٥
بدء الدّعوة سرًّا ٣٦
الجهر بالدعوة ٣٧
تعرُّض الرسول ﷺ للإذاية ٣٩
إسلام حمزة ٤٢
إسلام عمر ٤٣
الهجرة الأُولى إلى الحبشة ٤٤
الهجرة الثانية إلى الحبشة ٤٥
الحصار ٤٧
نقض الصحيفة ٤٨
عام الحزن ٥٠
زواجه عليه السلام من عائشة ٥٢
دعوة أهل الطائف ٥٢
الإسراء والمعراج ٥٣
العقبة الأولى ٥٧
العقبة الثانية ٥٧
طلائع الهجرة ٥٩
دار الندوة ٥٩
الهجرة الكبرى ٦١
النزول بقباء وبناء المسجد ٦٥

الوصول إلى المدينة ٦٦
بناء المسجد ٦٧
تركيز مبدأ الأخوَّة ٦٨
الوثيقة ٦٩
مشروعية القتال ٧١
مغازي رسول الله ﷺ ٧٣
أول مغازي الرسول ﷺ ٧٤
غزوة ودَّان ٧٤
عزوة بدر ٧٤
المدينة تتلقى بشائر النصر ٨٠
الحكم في الأَسرى ٨٠
تقسيم الغنائم ٨١
غزوة أُحُد ٨١
غزوة بني النضير (ربيع الأول سنة ٤هـ) ٨٦
غزوة بني المصطلق (شعبان، السنة الخامسة للهجرة) ٨٨
زواج الرسول ﷺ من جويرية ٩٠
فتنة العصبية ٩١
حديث الإفك ٩٢
غزوة الأحزاب (السنة الخامسة للهجرة) ٩٣
التوجّه إلى الله بالدعاء ٩٧
غزوة بني قريظة (شوال سنة ٥هـ) ٩٨

صلح الحديبية (ذو القعدة سنة ٦هـ) ١٠٢
التوجّه إلى مكّة المكرّمة لأداء مناسك العمرة ١٠٢
تأمين المدينة من الداخل ١٠٢
جاءت آيات تفضح الأعراب والمنافقين ١٠٤
إظهار علامات النسك ١٠٤
وسيط السلام الأول ١٠٨
الوسيط الثاني ١٠٩
الوسيط الثالث ١٠٩
الوسيط الرابع ١٠٩
الرسائل إلى الملوك ١١١
رسالة الرسول ﷺ إلى المقوقس ١١١
رسالة الرسول ﷺ إلى هِرقل ١١٢
رسالة الرسول ﷺ إلى النجاشي ١١٢
رسالة الرسول ﷺ إلى كسرى عظيم الفرس ١١٣
رسالة الرسول ﷺ إلى عُمان ١١٣
نتائج الرسائل ١١٤
تقديس ملوك الروم للرسالة ١١٤
خبر مازن بن غضوبة بن بشر الطائي ١١٧
إسلام مازن بن غضوبة ١١٩
غزوة خيبر (محرم السنة السابعة) ١٢٠
عمرة القضاء (ذو القعدة السنة السابعة للهجرة) ١٢٢

غزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨هـ) ١٢٣
الفتح الأعظم فتح مكّة (رمضان سنة ٨هـ) ١٢٦
غزوة حنين (شوال سنة ثمان للهجرة) ١٣١
الرسول ﷺ يردّ السبايا إلى أهلها ١٣٣
سنة الوفود ١٣٤
غزوة تبوك (رجب السنة التاسعة للهجرة) ١٣٧
بعوث النبي ﷺ وسراياه ١٤٠
بعث عبيدة بن الحارث ١٤٠
سرية عمير بن عديّ ١٤١
سرية سالم بن عمير ١٤٢
سرية سلمة بن عبد الأسد ١٤٣
سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك ١٤٣
سرية عمر بن الخطاب إلى طائفة من هوازن ١٤٤
حجّة الوداع ١٤٤
خطبة الوداع ١٤٥
مرض الرسول ﷺ ووفاته ١٤٧
وفاته ﷺ مصيبة الأولين والآخرين ١٥٠
صفته ﷺ وشمائله ١٥١
شجاعة الرسول ﷺ وصبره ١٥٧
فصاحة رسول الله ﷺ وبلاغته ١٥٧
شرح مفردات الحديث الشريف ١٥٩

ما خصَّ به النبي ﷺ من الآيات ١٦١
ما خص الله به النبي ﷺ يوم القيامة ١٦٣
أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن ١٦٤
١ ـ خديجة أم المؤمنين.. أول المسلمات ١٦٦
٢ ـ عائشة بنت الصِّدِّيق ١٦٦
٣ ـ حفصة بنت الفاروق ١٦٧
٤ ـ أم سلمة ١٦٧
٥ ـ أم حبيبة بنت أبي سفيان ١٦٨
٦ ـ زينب بنت جحش رضي الله عنها ١٦٩
٧ ـ سودة بنت زمعة وأمها من بني النجار ١٦٩
٨ ـ زينب بنت خزيمة رضي الله تعالى عنها ١٧٠
٩ ـ جويرية بنت الحارث رضي الله عنها ١٧٠
١٠ ـ زينب بنت خزيمة بن الحارث القيسية ١٧١
١١ ـ صفية بنت حيي بن أخطب ١٧١
١٢ ـ ريحانة بنت يزيد من بني النضير ١٧١
١٣ ـ ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها ١٧٢
أم شريك غزية ١٧٣
من تزوج بهن الرسول ﷺ ولم يدخل بهن ١٧٤
بنوه وبناته ﷺ ١٧٥
بنات النبي ﷺ ١٧٥
زينب الكبرى ١٧٥

رقية ذات الهجرتين ١٧٦
أم كلثوم ١٧٧
فاطمة الزهراء بنت محمَّد ﷺ ١٧٧
خُلقه ﷺ مع أهله وقراباته ١٧٨
المدينة المنوَّرة ١٧٩
مساجد الرسول ﷺ فيما بين المدينة إلى تبوك ١٨١
معرفة الرسول ﷺ بالتخطيط والتنظيم العمراني ١٨٢
الرسول المربّي ١٨٥
أهم المراجع ١٩٧